

سُورَةُ الْاِسْرَاءِ

مكية وهي مائة وإحدى عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَّا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ الْأَيْمَانِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ﴿١﴾

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى﴾ سبحان اسم للتسبيح ومعناه: تنزيه الله تعالى من كل نقص وسوء، وتصدير الكلام به، للتنزيه عن العجز عما ذكر بعده، والإسراء معناه السفر ليلاً، وهو ثابت بهذا النظم الكريم، ومفصل بالأحاديث النبوية الصحيحة، وذلك يعطيه قوة اليقين، ومنكر الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كافرٌ، لأنه أنكر القرآن الكريم، وإنكار المعراج فسق ﴿بِعَبْدِهِ﴾ أجمع المفسرون والعلماء على أن المراد بعبد رسول الله ﷺ ولم يختلف أحد من علماء الأمة في ذلك، وإيثار لفظ «العبد» للإيذان بتمحضه ﷺ في عبادته سبحانه وتعالى، وبلوغه في ذلك غاية الغايات، حسبما يلوح به مبدأ الإسراء ومنتهاه ﴿لَيْلًا﴾ قيده بالليل - والإسراء لا يكون إلا بالليل - للتأكيد، وليدلُّ التنكير على تقليل مدة الإسراء، وأنه تعالى أسرى به في بعض الليل لا في كله^(١) ﴿مِنَ الْمَسْجِدِ

(١) إنما ورد اللفظ ﴿ليلاً﴾ بالظرف ليفيد أنه كان في جزء وطائفة من الليل، ولو قال أسرى بعبد الليل لأفاد جميع الليل، فتنبه لدقائق أسرار القرآن.

الْحَرَامِ ﴿ اختلف في مبدأ الإسراء، فقيل: هو المسجد الحرام، وهو الذي يدل عليه ظاهر القرآن، روي عنه ﷺ أنه قال: «بينما أنا في المسجد الحرام، في الحجر عند البيت، بين النائم واليقظان، إذ أتاني جبريلُ بالبراق»^(١) الحديث، وقيل: أُسري به من دار «أم هانئ بنت أبي طالب» وهذا قول الأكثر، وعلى هذا القول المراد بالمسجد الحرام الحرمُ أي مكة المكرمة، فإنها كلها حرم وكان قبل الهجرة بسنة، وكان بالروح والجسد، لا كما زعم بعضهم أنه كان روحانياً، والحق أنه كان جسمانياً، على ما ينبىء عنه التصدير بكلمة ﴿سُبْحَانَ﴾ المفيدة للتزيه، وما في ضمنه من التعجب، فإن الإسراء الروحاني ليس في الاستبعاد والاستنكار، وخرق العادة بهذه المثابة، لأن كثيراً من المؤمنين يسيرون بأرواحهم إلى أقاصي الدنيا، ويشاهدون ما فيها من العجائب، فإذا كان الإسراء بالروح فقط فأين الاختصاص والامتياز؟ ولذلك تعجبت منه قريشٌ وأحالوه وأنكروه، ولو كان بالمنام لما أنكروه، فالأكثر على أنه أُسري بجسده، والأقلون قالوا: أُسري بروحه. وقال أهل التحقيق: إن العبد اسمٌ لمجموع الجسد والروح، وعلى الأول الجمهور، إذ لا فضيلة للحالم، ولا مزية للنائم، وفي هذا الحكم والاختلاف برهان قويٌّ على قوة الدين الإسلامي، الذي لا يأخذ أتباعه إلا بالوضوح والصرحة التامة، وقال طائفة كان الإسراء إلى بيت المقدس بالجسد، وإلى السماء بالروح، محتجين بأن الله تعالى جعل المسجد الأقصى غاية للإسراء، ولو كان زائداً عليه لذكره، وقال النووي: الذي عليه معظم السلف وأكثر المفسرين والمحدثين أن المعراج كان بجسده في يقظته ﷺ، والمعروف عند الجمهور أن ليلة الإسراء هي السابعة والعشرون من ليالي رجب، في السنة الحادية عشرة من النبوة، وقيل غير هذا، ولا خطر ولا ضرر في تحديد اليوم، فالعبرة في حدوث الشيء لا

(١) انظر تمام الحديث في صحيح البخاري كتاب التفسير ٣٩١/٨ وفي الإسراء من صحيح البخاري.

وقت وقوعه. ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ أي بيت المقدس، سمي به إذ لم يكن حينئذ وراءه مسجد، ولُبُعد المسافة ﴿الَّذِي بَنَرْنَا حَوْلَهُ﴾ بركات الدين والدنيا، لأنه مهبط الوحي، ومتعبّد الأنبياء عليهم السلام، وهو محفوظ بالأنهار الجارية، والأشجار المثمرة، فدمشق والأردن، وفلسطين من المدن التي حوله، وجُعل الإسراء إلى بيت المقدس، كالتوطئة لمعراجه ﷺ وتقريباً للإسراء إلى قبول السامعين، كما سألوا وقالوا: هل تستطيع أن تصف لنا المسجد؟ قال: نعم، فجلّى الله له بيت المقدس، فنعته فقالوا: أما النعت فقد أصاب، ومع ذلك كابروا وجحدوا ﴿لِزُرِيئِهِ﴾ غاية الإسراء ﴿مِنْ أَيْنُنَّا﴾ العظيمة التي من جملتها ذهابه في برهة من الليل، مسيرة شهر، ومشاهدة بيت المقدس، وتمثل الأنبياء له، ووقوفه ﷺ على مقاماتهم العلية، والالتفات إلى التكلم لتعظيم تلك البركات ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقواله ﷺ ودعائه ﴿الْبَصِيرُ﴾ بأفعاله فيكرمه ويقربه بحسب ذلك، وفيه إيماء إلى أن الإسراء ليس إلا لتكريمته ﷺ، ورفع منزلته، وإلّا فالإحاطة بأقواله وأفعاله حاصلة من غير حاجة إلى التقريب، والالتفات إلى الغيبة لتربية المهابة.. حكمة الإسراء: كان ﷺ قد ذهب إلى الطائف، يدعو أهلها إلى الإسلام، فما أحسنوا استقباله، بل أسأؤوا إليه، فرجع حزيناً إلى مكة، لوقوف قريش بالمرصاد في طريق رسالته، فكأنما طاف بنفسه وروحه العالية، وكأنما رأى أنه محوط بأعداء الإسلام من كل جانب، مع قلة أنصاره، فكان في حالة لا يمكن التعبير عنها بالقلم، لشدة حرصه على خير العالم، وعظيم شوقه إلى انتشار الإسلام، وحينئذ كان الإسراء والمعراج، ليبشره الله تعالى عملياً بما يزيل من نفسه عوامل الحزن والأسف، فالإسراء بمثابة «مرسوم ملكي» أُعلن فيه الرسول ﷺ ما هو قريب حصوله من إقبال الناس على دين الله، وقد تسلّم ﷺ هذا المرسوم الجليل، في حفلة كاملة، حضرها الأنبياء والمرسلون، والملائكة المقربون، وفيها حكّم كثيرة غير هذا.

﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي
وَكَيْلًا﴾.

﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي التوراة، وفيه إيماء إلى دعوته عليه السلام إلى الطور، وما وقع فيه من المناجاة، أي آتيناه بعدما أسرينا به إلى الطور، ذكر الله تعالى في الآية الأولى إكرامه للرسول ﷺ، وذكر في هذه الآية إكرامه لموسى عليه السلام ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ أي ذلك الكتاب ﴿هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يهتدون بأنواره ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا﴾ أي لا تتخذوا ﴿مِن دُونِي وَكَيْلًا﴾ أي رباً تكلون إليه أموركم.

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾.

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ نُصِبَ عَلَى الاختصاص، يعني قلنا لهم: لا تتخذوا من دوني وكيلاً، يا ذرية من حملنا مع نوح، والمراد تذكيرهم بإنعامه تعالى، في ذكر إنجاء آبائهم من الغرق، في سفينة نوح عليه السلام، فجميع الناس من ذرية من أنجى في السفينة ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ كثير الشكر في حالاته، روي أنه عليه السلام كان لا يأكل ولا يشرب ولا يلبس إلا قال: الحمد لله، وفيه إيماء بأن إنجاءه ومن معه، ببركة شكره، وحث للذرية على الاقتداء به.

﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَنَعْلُنَّ
عُلُوًّا كَبِيرًا﴾.

﴿وَقَضَيْنَا﴾ أي أعلمناهم وأوحينا إليهم ﴿إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾ أي في التوراة ﴿لُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ﴾ المراد بالأرض أرض فلسطين ﴿مَرَّتَيْنِ﴾ مخالفة لحكم التوراة أي تفسدناً إفساداً عظيماً مرتين، وذلك بسفك

الدماء، وقتل الأنبياء، وقتل زكريا ويحيى، وقصد قتل عيسى عليهم السلام ﴿وَلْتَعْلَنَ عَلْوًا كَبِيرًا﴾ لتستكبرن عن طاعة الله سبحانه بالظلم والعدوان، وتفرطن في ذلك مجاوزاً للحدود.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعَدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَلِ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعَدُ أُولَاهُمَا﴾ أي حان وقت حلول الغضب لأولى المرتين من الإفساد ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي بعثنا عليكم لمؤاخذتكم بجنایاتكم أناساً جبارين للانتقام منكم، ذوي قوة وبطش في الحروب^(١)، والمقصود هو أنهم لما أكثروا الظلم والمعاصي سلط الله عليهم أقواماً قتلوهم وشرّدوهم ﴿فَجَاسُوا﴾ أي ترددوا في طلبكم وطاقوا ﴿خِلَلِ الدِّيَارِ﴾ في أواسطها فقتلوا كبارهم، وسبوا صغارهم، وحرّفوا التوراة، وخرّبوا المسجد، وذلك تولية بعض الظالمين بعضاً، مما جرت به السنة الإلهية ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ لا محالة بحيث لا صارف له.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ﴾ أي الدّولة والغلبة ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي على الذين فعلوا بكم ما فعلوا، حين تبتم ورجعتم عن الفساد والعلو، وذلك حين

(١) قال المفسرون: إن بني إسرائيل لما انتهكوا المحارم، وسفكوا الدماء، سلط الله عليهم بختنصر المجوسي ملك بابل، فقتل منهم سبعين ألفاً حتى كاد يفنيهم هو وجنوده، وهذا أول الإفسادين في الأرض، وقضاء الله على بني إسرائيل ليس قضاء قهر وإلزام، وإنما هو إخبار من الله تعالى بما سيكون منهم، حسب علمه الأزلي سبحانه وتعالى منهم، فهو قضاء علم بما سيحدث، فتنبه والله يردك!.

قتل داودُ عليه السلام جالوت ﴿وَأَمَدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ﴾ كثيرة بعدما نُهبَت أموالكم ﴿وَبَيِّنَ﴾ بعدما سُيِّت أولادكم ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ أي جعلناكم أكثر عدداً ورجالاً من عدوكم، والنفيرُ من ينفر مع الرجل لنصرته، جمع نفر، وهم المجتمعون للذهاب إلى العدو.

﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْأَوْجُوهُكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّؤُا مَا عَمَلُوا تَبِيرًا﴾

﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ﴾ أعمالكم على الوجه اللائق، وفعلتم الإحسان ﴿أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾ لأن ثوابها لها ﴿وَأِنْ أَسَأْتُمْ﴾ أعمالكم وفعلتم الإساءة ﴿فَلَهَا﴾ أي فعلها وبالها ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ أي حان وقت ما وُعد من عقوبة المرة الأخيرة ﴿لِيَسْتَوْأَوْجُوهُكُمْ﴾ أي بعثناهم لِيَسْؤُوا وجوهكم أي ليجعلوها بادية فيها آثار المساءة ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّؤُا﴾ أي يهلكوا ﴿مَا عَمَلُوا﴾ ما غلبوه واستولوا عليه ﴿تَبِيرًا﴾ فظيماً لا يوصف، وقد سلط الله عزَّ وجلَّ عليهم الروم، فغزاهم «قسطنطين» ملك الروم، ودخل مذبح قرايينهم، فوجد فيه دمًا يغلي فقتل على ذاك الدم أوفاً، فلم يهدأ الدم، ثم قال: إن لم تصدقوني ما تركتُ منكم أحداً فقالوا: إنه دم يحيى بن زكريا عليهما السلام، فقال: لمثل هذا ينتقم ربكم منكم.

﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾

﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ﴾ إن تبتم توبة أخرى وانزجرتم عما كنتم عليه من المعاصي ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾ إلى ما كنتم من الفساد مرة أخرى ﴿عُدْنَا﴾ إلى عقوبتكم، وقد عادوا فأعاد الله النعمة بتسليط الأكَاسرة، وضرب الأتاوة

عليهم، ونحو ذلك، وعن الحسن فبعث الله تعالى الرسول ﷺ فقتل قريظة وأجلى بني النضير، وضرب الجزية على الباقين، هذا لهم في الدنيا ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ سجنًا لا يقدرُونَ على الخروج منه أبدًا.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ الذي آتيناك يا محمد ﴿يَهْدِي﴾ أي الناس كافة ﴿لِلَّتِي﴾ أي للطريقة التي ﴿هِيَ أَقْوَمُ﴾ أي أقوم الطريق وأسدّها أعني ملة الإسلام والتوحيد، وترك ذكرها لغاية ظهورها، لا سيما بعد ذكر الهداية، التي هي من روادفها وقوله: ﴿هِيَ أَقْوَمُ﴾ يدل على أن هذا الدين أقوم من سائر الأديان ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بما في تضاعيفه من الشرائع، والأحكام ﴿الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ أي الأعمال الصالحة التي يحبها الله عزّ وجل ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ أي بأن لهم بمقابلة تلك الأعمال ﴿أَجْرًا كَبِيرًا﴾ بحسب الذات، وبحسب التضعيف عشر مرات فصاعدًا.

﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي لا يصدّقون بقاء الله، ولا يؤمنون بالبعث والحساب والعذاب ﴿أَعْتَدْنَا﴾ أي أعددنا قلبت الدال تاء ﴿لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ هو عذاب جهنم أي أعددنا لهم بسبب كفرهم بالآخرة، عذابًا أليمًا، وهو أبلغ في الزجر، لما أن إتيان العذاب من حيث لا يحتسب أفظع والآية ترد على القول بالمنزلة بين المنزلتين، التي قال بها المعتزلة، حيث ذكر تعالى المؤمنين وجزاءهم، والكافرين وجزاءهم.

﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾.

﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ﴾ المرادُ بالإنسان الجنسُ، حكى عنه حاله في بعض أحيانه، وهو الكافر يدعو لنفسه بما هو شر من العذاب المذكور كدأب من قال منهم: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَاباً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْبِتْنَا بِعَذَابِ أَلِيمٍ﴾^(١) ﴿دُعَاءُ بِالْخَيْرِ﴾ أي مثل دعائه بالخير ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً﴾ أي يسارع إلى طلب ما يخطر بباله، متعامياً عن ضرره، كما هو حاله عند الغضب، يدعو على نفسه، وأهله، وماله بما هو شر، وكان الإنسان بحسب جبلته ﴿عَجُولاً﴾، ضجراً لا يتأني إلى أن يزول عنه ما يعتريه، ولا ينظر إلى عاقبته قال ابن عباس: هو دعاء الإنسان على نفسه وولده عند الضجر، بما لا يحب أن يستجاب له: اللهم أهلكه، اللهم دمره ونحوه^(٢).

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَحَوْنًا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِيَتَّبِعُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ وَفَضْلَهُ تَقْصِيلاً ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ﴾ شروع في بيان بعض وجوه ما ذكر من الهداية، بالإرشاد إلى مسلك الاستدلال بالآيات والدلائل الآفاقية، التي كل واحدة منها برهان نيز لا ريب فيه، وتقديم الليل لمراعاة الترتيب الوجودي، إذ منه ينسلخ النهار، وفيه تظهر غرر الشهور، ولترتب آية النهار عليها بلا واسطة، أي جعلنا الليل والنهار بهيأتها، وتعاقبهما، واختلافهما في الطول والقصر، على وتيرة عجيبة، تحار في فهمهما العقول، آيتين تدلان على أن لهما صناعاً حكيماً، قادراً، عليمًا، تهديان لملة التوحيد، أي جعلناهما علامتين عظيمتين على وحدانية الله، وكمال قدرته جلَّ وعلا.

(١) سورة الأنفال، آية: ٣٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٠/٢٢٥.

ثم إن مصالح الدنيا لا تتم إلا بالليل والنهار، فلولا الليل لما حصل السكون والراحة، ولولا النهار لما حصل الكسب والتصرف في وجوه المعاش ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ أي فمحونا الآية التي هي الليل، فجعلناه مظلماً، وجعلنا الآية التي هي النهار مبصرة، أي مشرقاً بالنور والضياء ليحصل به الإبصار، يريد الشمس والقمر، فمحو القمر حيث لم يخلق له شعاعاً، بل هو مستفاد من الشمس، وإبداعها على ذلك وأهل التجارب الفلكية، بينوا أن اختلاف أحوال القمر في مقدار النور، له أثر عظيم في أحوال هذا العالم ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أي مضيئة يُبصر فيها الأشياء، وأبدعها مضيئة بالذات، تظهر فيها الأشياء المظلمة ﴿لِتَبْتَغُوا﴾ أي لتطلبوا لأنفسكم ﴿فَضْلاً﴾ أي رزقاً، إذ لا يتسنى ذلك في الليل ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ من مربيكم ورازقكم، وفي التعبير عن الرزق بالفضل، وعن الكسب بالابتغاء، دلالة على أن ليس للعبد في تحصيل الرزق تأثير، سوى الطلب، وإنما الإعطاء إلى الله سبحانه، لا بطريق الوجوب عليه، بل بفضله، بحكم الربوبية للعباد ﴿وَلِتَعْلَمُوا﴾ أي لتعلموا بتفاوت الليل والنهار من حيث الإظلام والإضاءة ﴿عَدَدَ السِّنِينَ﴾ عدد الأيام والشهور والأعوام، لإقامة مصالحكم الدينية والدنيوية ﴿وَالْحِسَابِ﴾ أي حساب الأوقات أي الأشهر والأيام، ولولا ذلك لما علم أحد حساب الأوقات، ولم يدر أوقات الشرع، والديون، وغير ذلك ﴿وَكُلِّ شَيْءٍ﴾ تفتقرون إليه في المعاش والمعاد ﴿فَصَلَّنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ أي بيناه في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ فظهر كونه هادياً للتي هي أقوم.

﴿وَكُلِّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلِبُهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا﴾

يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴿١٣﴾

﴿وَكُلِّ إِنْسَانٍ﴾ مكلف ﴿أَلْزَمْنَاهُ طَلِبُهُ﴾ أي عمله الصادر عنه باختياره، كأنه طار إليه من عُشِّ الغيب، ووكر القَدْر، أو ما وقع له في

القسمة الأزلية، من قولهم طار له سهم كذا ﴿ فِي عُنُقِهِ ﴾ تصوير لشدة اللزوم، وكمال الارتباط، أي الزمناء عمله بحيث لا يفارقه أبداً، بل يلزمه لزوم القلادة أو الغل للعنق، فإن كان عمله خيراً، كان كالحلي يزيئنه، وإن شراً كان كالغلّ يشينه ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا ﴾ مسطوراً فيه ما ذكر من عمله صغيراً أو كبيراً نقيراً أو قَظْمِيراً ﴿ يَلْقَاهُ ﴾ أي الإنسان ﴿ مَنْشُورًا ﴾ ونظيره: ﴿ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾ قال الحسن البصري: «بُسطت لك يا بن آدم صحيفة، ووكل لك ملكان فهما عن يمينك وعن شمالك، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن شمالك فيحفظ سيئاتك، حتى إذا متَّ، طُويت صحيفتك، وجُعِلت معك في قبرك حتى تخرج يوم القيامة، ويقال لك:

﴿ أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ .

﴿ أَقْرَأَ كِتَابَكَ ﴾ قال قتادة: يقرأ ذلك اليوم، من لم يكن قارئاً في الدنيا ﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ أي نفسك والباء زائدة، واليوم ظرف لكفى، وحسبياً تمييز بمعنى الحاسب، أو بمعنى الكافي، ووضع موضع الشهيد.

﴿ مَن آهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۗ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا نُزِرْ وَأَزِرَّةً وَلَا أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ .

﴿ مَن آهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۗ ﴾ أي من اهتدى بهدایتة، وعمل بما فيه من الأحكام، وانتهى عما نهاه عنه فإنما تعود منفعة اهتدائه إلى نفسه، لا يتخطاه إلى غيره ممن لم يهتد، ويتأكد هذا بقوله تعالى: ﴿ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ ﴿ وَمَن ضَلَّ ﴾ عن الطريقة التي يهديه إليها ﴿ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ أي فإنما وبال ضلاله عليها، لا على من عداه ممن لا يباشره والآية دالة على أن العبد متمكن من الخير والشر، وأنه غير مجبور على

عمل بعينه أصلاً ﴿وَلَا تُزِرُّ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَى﴾ أي لا تحمل نفس حاملة للوزر، وزر نفس أخرى، حتى يمكن تخليص النفس الثانية عن وزرها، وإنما تحمل كل منهما وزرها، وهذا تحقيق قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمَانَهُ طَائِرُهُ فِي عُنُقِهِ﴾ وأمّا ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ﴾ الآية من حمل الغير وزر الغير، وانتفاعه بحسنه، فهو في الحقيقة انتفاع بحسنة نفسه، وتضرُّرُ بسيئاتها، فإن جزاء الحسنة والسيئة، اللتين يعملهما العامل، لازمٌ له، وإنما الذي يصل إلى من يشفع جزاء شفاعته، لا جزاء أصل الحسنة، وكذا جزاء الضلال مقصودٌ على الضالين، وما يحمله المضلون إنما هو جزاء الإضلال، لا جزاء الضلال، وإنما خص التأكيد بالجملة الثانية، قطعاً للأطماع الفارغة، حيث كانوا يزعمون أنهم إن لم يكونوا على الحق، فالتبعة على أسلافهم الذين قلدوهم، وقالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ﴾ بيان للعناية الربانية أي وما صحَّ وما استقام منا، في سنتنا المبنية على الحكم البالغة، أن نعذب أحداً اكتفاءً بقضية العقل ﴿حَقِّقْ نَبْعَتْ﴾ إليهم ﴿رَسُولًا﴾ يهديهم إلى الحق، ويردعهم عن الضلال، ويقيم الحجج، ويمهد الشرائع، والمراد بالعذاب المنفي إمّا عذاب الاستئصال وهو المناسب لما بعده، أو الجنس الشامل للدنيوي والأخروي.

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيَّهَا الْقَوْلُ فَمَدَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ ﴿١٦﴾ .

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً﴾ أي إذا تعلق إرادتنا بإهلاك قرية، بأن نعذب أهلها بعذاب الاستئصال ﴿أَمَرْنَا﴾ بواسطة الرسول المبعوث إلى أهلها ﴿مُتْرَفِيهَا﴾ متنعميها وجبّاريها، والمترف: المتنعم الذي أبطرته النعمة خصّهم بالذكر لأنهم أسرع إلى الحماقة، وأقدر على الفجور، وعدم التعرض للمأمور به، لظهوره، وأنّ المراد به الحق والخير، لأن الله لا يأمر

بالفحشاء، قال أكثر المفسرين معناه: أنه تعالى أمرهم بالأعمال الصالحة، والقوم خالفوا وفسقوا، ويدلُّ على ذلك ما قبله وما بعده، فإن الفسق هو الخروج عن الطاعة ﴿فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ أي خرجوا عن الطاعة وتمردوا ﴿فَحَقَّ عَلَيَّهَا الْقَوْلُ﴾ أي ثبت وتحقق موجبه بحلول العذاب إثر ما ظهر منهم الفسق والطغيان ﴿فَدَمَّرْنَاهَا﴾ بتدمير أهلها ﴿تَدْمِيرًا﴾ لا يكتنه كنهه ولا يوصف.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ رِبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ (١٧).

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾ وكثيراً ما أهلكنا ﴿مِنَ الْقُرُونِ﴾ بيان «كم» وتمييزاً له، والمراد به الأمم الكافرة ﴿مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ من بعد زمانه عليه السلام، كعاد، وثمود، ومن بعدهم، وعدم نظم قوم نوح في تلك القرون المهلكة، لظهور أمرهم، على أن ذكره عليه السلام رمز إلى ذكرهم ﴿وَكَفَىٰ رِبِّكَ﴾ أي كفى ربك ﴿بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ يحيط علمه بظواهرها وبواطنها فيعاقب عليها.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُمْ جَهَنَّمَ يَصَلُّنَهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ (١٨).

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ﴾ بأعماله التي يعملها سواء كان ترتب المراد عليها بطريق الجزاء كأعمال البر أو بطريق ترتب المعلولات على العلة كالأسباب أو بأعمال الآخرة فالمراد بهم الكفرة وأكثر الفسقة وأهل الرياء والنفاق ﴿الْعَاجِلَةَ﴾ فقط من غير أن يريد معها الآخرة، والمراد بالعاجلة الدنيا، وبارادتها إرادة ما فيها ﴿عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا﴾ أي في تلك الدنيا ﴿مَا نَشَاءُ﴾ أي ما نشاء تعجيله له، من نعيمها، لا كل ما يريد ﴿لِمَنْ نُرِيدُ﴾ تعجيل ما نشاء له وتقييد المعجل والمعجل له بالمشيئة والإرادة لما أن الحكمة لا تقتضي وصول كل طالب لمرامه، وهكذا الحال، ترى كثيراً من هؤلاء الفجار

يتمنون ما يتمنون، ولا يُعطون، فاجتمع عليهم فقر الدنيا، وفقر الآخرة ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا﴾ مكان ما عجلنا ﴿لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ وما فيها من أصناف العذاب ﴿يَصَلُّنَهَا﴾ يدخلها ﴿مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ مطروداً من رحمة الله، وهذا زجر عظيم لهؤلاء الضالين الذين يتركون الدين لطلب الدنيا وربما فاتتهم الدنيا، فهم الأخسرون أعمالاً الذين ضل سعيهم، ومن الجهال من ساعدته الدنيا فاغترَّ بها، وظن كون ذلك لأجل كرامته على الله تعالى، كما قال بعض المشركين: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ والدنيا قد تحصل للكافر، مع أن عاقبتها المصير إلى عذاب الله.

﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ ﴿١٩﴾ .

﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ﴾ بأعماله ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ أي السعي اللائق بها، وهو الإتيان بما أمر الله، والانتهاز عما نهى عنه ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ إيماناً صادقاً صحيحاً، وإيراد الإيمان بالجملة الحالية ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ للدلالة على اشتراط مقارنته ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ الجامعون للشروط الثلاثة ﴿كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ من الله تعالى أي مقبولاً عنده، فإن شكر الله تعالى، الثواب على الطاعة وعن بعض السلف، من لم يكن معه ثلاث، لم ينفعه عمله: إيماناً ثابت، ونية صادقة، وعملٌ مصيب، وتلا هذه الآية.

﴿كَلَّا نُمَدِّ هَتُولَاءَ وَهَتُولَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ ﴿٢٠﴾ .

﴿كَلَّا﴾ أي كل واحد من الفريقين ﴿نُمَدِّ﴾ نزيد مرة بعد مرة، ما عَجَّل لأحدهما من العطايا العاجلة، وما أُعِد للآخر من العطايا الآجلة ﴿هَتُولَاءَ﴾ الذين أرادوا الدنيا ﴿وَهَتُولَاءَ﴾ وهؤلاء المشكور سعيهم، ﴿مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ أي من عطائه الواسع، تفضلاً وإحساناً منه جلَّ وعلا ﴿وَمَا كَانَ

عَطَاءَ رَبِّكَ ﴿ دُنْيَوِيًّا كَانَ أَوْ آخِرَوِيًّا، وَإِنَّمَا أَظْهَرَهُ إِظْهَارًا، لِمَزِيدِ الْإِعْتِنَاءِ بِشَأْنِهِ ﴿ مَحْظُورًا ﴾ أَي مَمْنُوعًا مَمَّن يَرِيدُهُ، بَلْ هُوَ فَائِضٌ بِمُوجِبِ الْمَشِيئَةِ الْإِلَهِيَّةِ .

﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ۖ وَاللَّآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ ﴿٢١﴾ .

﴿ أَنْظِرْ ﴾ بنظر الاعتبار ﴿ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ فيما أمددناهم به من العطاء العاجل، فمن وضيع ورفيع، ومالك ومملوك، وموسر وصعلوك، تعرف بذلك مراتب العطايا الآجلة، ودرجات تفاوت أهلها، وقد بين الله تعالى وجه الحكمة في هذا التفاوت في قوله سبحانه: ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾ (١) وفي قوله: ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلِغَكُمْ فِيهَا آتَاكُمْ ﴾ (٢) ﴿ وَاللَّآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ ﴾ أي هي وما فيها أكبر من الدنيا ﴿ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ لأن التفاوت فيها بالجنة ودرجاتها والنار ودرجاتها، روي أن قوماً من الأشراف فمن دونهم اجتمعوا في باب عمر رضي الله عنه فخرج الإذن لبلال وصهيب، فسق على أبي سفيان فقال سهيل بن عمرو: دعوا إلى الإسلام فأسرعوا وأبطأنا، وهذا باب عمر فكيف التفاوت في الآخرة، قال الله تعالى: ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ (٣).

﴿ لَا يَجْعَلُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقَعُدَ مَذْمُومًا مَّحْدُولًا ﴾ ﴿٢٢﴾ .

(١) سورة الزخرف، آية: ٣٢ .

(٢) سورة الأنعام، آية: ١٦٥ .

(٣) سورة الفرقان، آية: ٢٤ .

﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ للرسول ﷺ والمراد أمته أو لكل أحد ممن يصلح لهذا الخطاب ﴿ فَتَقَعُدْ ﴾ جواب للنهي، والقعود بمعنى العجز من قعد عنه أي عجز عنه ﴿ مَذْمُومًا تَحْذُولًا ﴾ جامعاً على نفسك الذم من الملائكة والمؤمنين والخذلان من الله، والخذلان ضد النصر والعون، دليله قوله تعالى: ﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ، وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ﴾؟ جعل الخذلان بمقابلة النصر.

﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَلْفٌ وَلَا نَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ (١٣).

﴿ وَقَضَى رَبُّكَ ﴾ أي أمر أمراً مقطوعاً به ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا ﴾ بأن لا تعبدوا ﴿ إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ لأن العبادة غاية التعظيم، فلا تحق إلا لمن له غاية العظمة، ونهاية الإنعام ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ ﴾ أي وأن تحسنوا بهما ﴿ إِحْسَانًا ﴾ لأنهما السبب الظاهر للوجود والحياة^(١) ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا ﴾ إمّا مركبة من «إن» الشرطية، و«ما» المزيدة لتأكيدهما، ومعنى «عندك» أي في كنفك وكفالتك، وتقديمه على المفعول للتشويق، فإنه مدار تضاعف الرعاية والإحسان، ومعنى ﴿ الْكِبَرَ ﴾ أنهما يبلغان إلى حالة الضعف والعجز، فيصيران عندك في آخر العمر، كما كنت عندهما في أول العمر ﴿ فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَلْفٌ ﴾ أي لواحد منهما، و«ألف» صوتٌ ينبىء عن تضجّر، أي لا تضجر بما يستقدر منهما وتستثقل من مؤونتهما، وبهذا النهي يفهم النهي عن سائر ما يؤذيها بدلالة النص، وقد خص بالذكر بعضه إظهاراً للاعتناء بشأنه فقيل: ﴿ وَلَا نَنْهَرْهُمَا ﴾ أي لا تزجرهما عما لا يعجبك

(١) قيل كل الذنوب يؤخر الله تعالى من عقوبتها ما شاء، إلاّ عقوق الوالدين فإن الله يعجله لصاحبه قبل الممات.

بإغلاظ، والنَهْرُ الزجرُ والغلظة ﴿ وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ أي حسناً، جميلاً، ليناً، كما يقتضيه حسنُ الأدب معهما، مثل أن يقول يا أباه، ويا أمّاه كدأب إبراهيم عليه السلام ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ ﴾ مع ما به من الكفر، ولا يدعوها بأسمائهما، فإنه من الجفاء وسوء الأدب، وديدن الدُعَارِ والفُجَّارِ.

﴿ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ (٢٤)

﴿ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ ﴾ هو عبارة عن لين الجانب، والتواضع لهما فإن إعزازهما لا يكون إلاً بذلك، والطائر إذا أراد تربية فرخه، خفض له جناحه، ولهذا صار خفضُ الجناح كناية عن حسن التربية والتواضع فكأنه قيل للولد: اكْفُلْ والديك في حالة العجز والضعف، كما فعلا بك حال صغرك ﴿ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ من فرط رحمتك عليهما، لافتقارهما إلى من كان أفقر خلق الله إليهما بالأمس ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمُهُمَا ﴾ وادع الله أن يرحمهما برحمته الباقية، ولا تكف برحمتك الفانية ﴿ كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ أي رحمة مثل رحمتها لي، ولقد بالغ عزٌّ وجل في التوصية بهما، حيث افتتحها بأن شفع الإحسان إليهما بتوحيده سبحانه، ونظمهما في سلك القضاء بهما معاً، ثم ضيَّق الأمر في باب مراعاتهما حتى لم يرخص في أدنى كلمة تنفلت من المتضجر، مع ما له من موجبات الضَجْر، وختمها بأن جعل رحمته التي وسعت كل شيء مشبهة بتربيتهما، والدعاء مختص بالأبوين المسلمين، وقيل: إذا كانا كافرين يدعو الله لهما بالهداية والتوفيق، سئل سفيان كم يدعو الإنسان لوالديه؟ فقال: نرجو أن يجزيه إذا دعا لهما في أواخر الشهادات^(١). روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال:

(١) حقوق الوالدين على الولد كثيرة ومنها: الإنفاق عليهما، والكسوة إن احتاجا إليها، =

جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أُمَّكَ، ثم أُمَّكَ، ثم أُمَّكَ، ثم أباك، ثم أدناك فأدناك»^(١). وروى مسلم عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رغم أنفه، ثم رغم أنفه، ثم رغم أنفه» قيل: من يا رسول الله؟ قال: «من أدرك أبويه عند الكِبَرِ أحدهما، أو كليهما ثم لم يدخل الجنة»^(٢) وروي أيضاً عن عبد الله بن مسعود قال: سألت رسول الله أيُّ الأعمال أحبُّ إلى الله؟ قال: «الصلاة» لوقتها، قلت: ثم أيُّ؟ قال برُّ الوالدين، قلت: ثم أيُّ؟ قال: الجهادُ في سبيل الله»^(٣).

﴿ رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴾

﴿ رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ﴾ من البر، والعقوق، وكأنه تهديدٌ على أن يظمر لهما كراهةً واستثقالاً ﴿ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ ﴾ قاصدين للصالح والبر، دون العقوق والفساد ﴿ فَإِنَّهُ ﴾ تعالى ﴿ كَانَ لِلأَوَّابِينَ ﴾ أي الراجعين إلى الله تعالى عما فرط منهم، مما لا يخلو عنه البشر ﴿ غَفُورًا ﴾ لما وقع منهم من نوع تقصير، أو أذية، ويدخل فيه الجاني على الأوبين.

= والإجابة إن دعياءه، والإطاعة لهما ما لم يأمر بالمعصية لله، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، والكلام الرفيق اللين، وألا يدعوها باسمهما وإنما يقول: يا أبت، ويا أمي، وأن يمشي خلفهما، والدعاء لهما في كل صلاة وفي جميع الأوقات والأحيان: ربي ارحمهما كما ربياني صغيراً.

(١) أخرجه البخاري رقم ٥٩٧١ ومسلم رقم ٢٥٤٨.

(٢) أخرجه مسلم رقم ٢٥٥١.

(٣) أخرجه البخاري رقم ٥٢٧ ومسلم رقم ٤٧.

﴿وَعَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ ﴿٢٦﴾ .

﴿وَعَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ المراد بهم المحارم، أقارب الرجل، وبحقهم النفقة، وإذا لم يكن من المحارم، فلا حق لهم إلا المودة، والزيارة، وحسن المعاشرة ﴿وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ أي وآت هؤلاء حقهم من الزكاة، المسكين المعدم، والغريب المنقطع في سفره ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ نهي عن صرف المال في غير الحِلِّ، وغير المحلِّ، فإن التبذير: تفريق الشيء في غير موضعه، مأخوذ من تفريق البذر في الأرض كيف ما اتفق، سئل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن التبذير، فقال: إنفاق المال في غير حقه، وقد أنفق بعضهم في خير فأكثر، فقال له صاحبه: لا خير في السَّرَفِ، فقال له المحسن: لا سَرَفِ في الخير.

﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ ﴿٢٧﴾ .

﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ﴾ تعليل للنهي عن التبذير، والمراد بالأخوة: المماثلة التامة في كل ما لا خير فيه، من صفات السوء، التي من جملتها التبذير ﴿كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ أي قرناءهم في الدنيا والآخرة، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعَشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ (١) روي أنهم كانوا ينحرون الإبل، ويبذرون في السمعة، فنهاهم الله عن ذلك، وأمرهم بالإنفاق في القربات ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ أي مبالغاً في كفران نعمته تعالى، وتخصيص هذا الوصف بالذكر، للإيدان بأن التبذير من باب الكفران.

(١) سورة الزخرف، آية: ٣٦ .

﴿وَأَمَّا تَعْرِضَنَّهُمْ﴾ أي إن أعرضت عن ذي القربى، والمسكين، وابن السبيل حياة من التصريح بالردّ بسبب الفقر والقلّة ﴿أَيْتَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ أي فقد رزق ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ إقامة للمسبّب مقام السبب، فإن فقد سبب للابتغاء ﴿تَرْجُوهَا﴾ من الله تعالى لتعطيهم، روي أنه ﷺ كان إذا سئل شيئاً وليس عنده، أعرض عن السائل وسكت حياة، فأمر بتعهدهم بالقول الجميل، لئلا يعتربهم الوحشة ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ أي سهلاً لينا، وعذم وعداً جميلاً، تطيب به قلوبهم، أو قل رزقنا الله وإياكم من فضله.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ هما تمثيلان لمنع شحّ الشحيح، وإسراف المبدّر، زجراً لهما عنهما، وحملًا على ما بينهما من الاقتصاد الذي هو بين التقدير والإسراف، وهو الكرم كما قيل: «كلا طرفي قُصِدِ الأمورِ ذَمِيمٌ» وحيث كان قبح الشح مقارناً له، روعي ذلك في التصوير بأقبح الصور، وغائلة الإسراف في آخره بين قبحه في أثره، فقيل: ﴿فَنَقَعْدُ مَلُومًا﴾ أي فتصير ملوماً عند الله، وعند الناس، وعند نفسك، إذا احتجت وندمت على ما فعلت ﴿تَحْسُورًا﴾ أي منقطعاً بك لا شيء عندك من المال.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا﴾

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ تعليل لما مر، أي يوسعه على بعض، ويضيقه على الآخرين، حسبما تتعلق به مشيئته التابعة للحكمة، فليس ما يرهقك من نفاذ ما في يدك إذا بسطتها كل البسط إلا لمصلحتك ﴿ إِنَّهُ كَانَ عِبَادَهُ خَيْرًا بَصِيرًا ﴾ أي يعلم سرهم وعلنهم، ويعلم من مصالحهم ما يخفى عليهم، فهو تعالى يبسط تارة، ويقبض أخرى، فاستنوا بسنته، ولا تقبضوا كل القبض، ولا تبسطوا كل البسط، فالتفاوت في أرزاق العباد، ليس لأجل البخل، بل لأجل رعاية المصالح، قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنزِّل بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ﴾ (١).

﴿ وَلَا تَقْلُوبُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ مِّنْ نَّرْفِهِمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قُلُوبَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾ (٣١).

﴿ وَلَا تَقْلُوبُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ ﴾ أي مخافة فقر، كانوا يثدنون بناتهم مخافة الفقر فنهوا عن ذلك ﴿ مِّنْ نَّرْفِهِمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ فلا تخافوا الفاقة بناء على زعمكم بعجزكم عن تحصيل رزقهم، وهو ضمان لرزقهم وتعليل للنهي المذكور ﴿ إِنَّ قُلُوبَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾ أي جرماً عظيماً، وذنباً كبيراً، كيف لا، وإن قرابة الأولاد قرابة الجزئية، وهي أعظم الموجبات للمحبة، فإذا أقدم الوالد على هذه العظيمة، دل ذلك على غلظ القلب، وفساد الأخلاق.

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الرِّزْقَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ (٣٢).

(١) سورة الشورى، آية: ٢٧ .

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ ﴾ بإتيان المقدمات من القبلة، والغمزة، واللمس، والنظر بشهوة، ونحوها فضلاً عن أن تباشروه، وإنما نهى عن قربانه، للمبالغة في النهي عن نفسه، ولأن الاقتراب منه داع إلى مباشرته ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً ﴾ فعلة ظاهرة القبح، متجاوزة الحد فإن فيه تضييع الأنساب ﴿ وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ أي بش طريفاً، لأنه يدفع صاحبه إلى النار، وهو طريق لقطع الأنساب أيضاً.

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴾ ﴿٣٣﴾ .

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ قتلها، بأن عصمها الله بالإسلام، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا ﴾ نهى وتحريم، وقوله: ﴿ حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ تأكيد وتقدير ﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ أي بارتكاب ما يبيح الدّم، وذلك بإحدى ثلاث: كفر بعد إيمان، وزنى بعد إحصان، وقتل نفس معصومة عمداً، ودلت آية أخرى على حصول سبب رابع وهو قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا ﴾ ^(١) الآية، وروي عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل دم امرئ مسلم، يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة» ^(٢) ﴿ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا ﴾ بغير حق يوجب قتله أو يبيحه للقتل، حتى إنه لا يعتبر إباحة ولي المقتول لغيره، فإن من عليه القصاص إذا قتله غير من له القصاص يقتص من القاتل، ولا يفيد قول الولي أنا أمرته بذلك ما لم يكن الأمر ظاهراً ﴿ فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ ﴾ لمن يلي أمره من الوارث ﴿ سُلْطَانًا ﴾ أي قوة واستيلاء على

(١) سورة المائدة، آية: ٣٣.

(٢) أخرجه البخاري في الديات ٢٠١/١٢ ومسلم رقم ١٦٧٦ وأبو داود رقم ٤٣٥٢ في الحدود.

القاتل، يؤاخذة بالقصاص، أو بالدية، حسبما تقتضيه جنائمه، وهو مخير إن شاء استقاد منه، وإن شاء أخذ الدية، وإن شاء عفا ﴿فَلَا يُسْرِفُ﴾ أي الولي ﴿فِي الْقَتْلِ﴾ في أمر القتل بأن يتجاوز الحد المشروع بأن يزيد عليه المثلثة، أو بأن يقتل غير القاتل من أقاربه، أو بأن يقتل اثنين مكان الواحد، كما كان يفعله أهل الجاهلية إذا كان المقتول شريفاً، فلا يرضون بقتل القاتل وحده، حتى يقتلوا جماعةً من أقربائه ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا مَنْصُورًا﴾ الضمير للولي على معنى أنه تعالى نصره بأن أوجب له القصاص، أو الدية، وأمر الحكام بمعونته في استيفاء حقه، فلا يبغي ما وراء الحق، وظاهر الآية يدل على أن القصاص يجري بين الحر والعبد، وبين المسلم والذمي، لأن أنفسهم داخلة في الآية لكونها محرمة.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ
إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ نهى عن قربانه، مبالغة في النهي عن التعرض له، فلماً نهى الله عن إتلاف النفوس، أتبعه بالنهي عن إتلاف الأموال، لأن أعز الأشياء بعد النفوس الأموال، وأحق الناس بالنهي عن إتلاف أموالهم اليتيم، لأنه لصغره وضعفه وعجزه، يعظم ضرره، بإتلاف ماله، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْيَتِيمِ﴾ (١) ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي بالطرائق التي هي أحسن الطرق، وهي حفظه واستثماره ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ أي حتى يبلغ سنَّ الرشد ويكمل عقله، وهي ثمان عشرة سنة ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ سواء جرى بينكم وبين ربكم، أو بينكم وبين غيركم، ويؤكد هذا النصُّ بسائر الآيات، كقوله تعالى: ﴿وَالْمُؤُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا

(١) سورة النساء، آية: ٦.

عَاهَدُوا ﴿ وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾^(١) والإيفاء بالعهد هو القيام بمقتضاه، والمحافظةُ عليه، ولا يستعمل إلا بالباء، فزقاً بينه وبين الإيفاء الحسبي كإيفاء الكيل والوزن ﴿إِنَّ الْعَهْدَ﴾ أظهر لكمال العناية بشأنه ﴿كَانَ مَسْئُولًا﴾ أي مسؤولاً عنه، يُسأل الناكث ويعاتب: لم نكثت؟.

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كُنْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾^(٣٥).

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ أي أتموه ولا تُخسروه ﴿إِذَا كُنْتُمْ﴾ أي وقت كيلكم، وتقييد الأمر بذلك، لما أن التطفيف هناك يكون ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطِ﴾ أي زنوا بالميزان العادل السوي، الذي لا يبخس فيه ولا يزيف، والقسطاسُ الأصح أنه من لغة العرب، وهو مأخوذٌ من القسط، وهو الذي يحصل منه الاستقامة ﴿الْمُسْتَقِيمِ﴾ أي العدل السوي، وعند استقامته لا يتصور الجور، وقد أمر بتقويمه أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ ﴿ذَلِكَ﴾ أي إيفاء الكيل والوزن بالميزان السوي ﴿خَيْرٌ﴾ إذ هو أمانة توجب الذكر الجميل بين الناس ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ عاقبة ومآلاً في الآخرة، واعلم أن التفاوت الحاصل بسبب نقصان الكيل والوزن قليل، والوعيد الحاصل عليه شديد عظيم، فالعاقل من يحترز منه.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾^(٣٦).

﴿وَلَا تَقْفُ﴾ ولا تتبع، من قفا أثره إذا تبعه ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي

(١) سورة المؤمنون، آية: ٨.

لا تكن في اتباع ما لا علم لك به، من قول، أو فعل، كمن يتبع مسلماً لا يدري أنه يوصله إلى مقصده، ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ﴾ أي كل واحد من تلك الأعضاء، فأجريت مجرى العقلاء، لما كانت مسؤولة عن أحوالها، وشاهدة على أصحابها ﴿كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ أي كان كل من تلك الأعضاء مسؤولاً عما فعل به صاحبه، ومن الدعاء المأثور «اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي، وشر بصري، وشر فؤادي، وشر لساني، وشر قلبي، وشر مني يعني ماءه وذكره»^(١).

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾^(٢٧).

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ﴾ التقييد بها لزيادة التقرير، والإشعار بأن المشي عليها مما لا يليق بالمتكبر ﴿مَرَحًا﴾ تكبراً وبطراً واختيالاً وفي سورة الفرقان: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾^(٢) ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ﴾ فيه تهكم بالمختال، وإيدان بأن ذلك مفاخرة مع الأرض، وتكبر عليها، أي لن تخرق الأرض بدوسك ووطأتك عليها ﴿وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ﴾ التي هي بعض أجزاء الأرض ﴿طُولًا﴾ حتى يمكن لك أن تتكبر عليها، إذ التكبر بكثرة القوة، وعظم الجثة، وكلاهما مفقود في الإنسان، وكان الآية تقول: إنك أيها الإنسان هزيل ضئيل، لا يليق بك الشموخ والكبرياء، كيف تتكبر وتختال وأنت أضعف من الأرض والجبال؟.

﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾^(٢٨).

(١) أخرجه أبو داود، رقم ١٥٥١ والترمذي رقم ٣٤٨٧ والنسائي ٢٥٩/٨.

(٢) سورة الفرقان، آية: ٦٣.

﴿ كُلُّ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى الأوامر، والنواهي، من الخصال الخمس والعشرين ﴿ كَانَ سَيِّئُهُ ﴾ أي كان عمله القبيح الذي نهى عنه، وهي اثنتا عشرة خصلة ﴿ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ مبغضاً غير مرضي عند الله تعالى .

﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾ ﴿٣٩﴾ .

﴿ ذَلِكَ ﴾ أي الذي تقدّم من الأوامر والنواهي ﴿ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ ﴾ أي بعض منه ﴿ مِنَ الْحِكْمَةِ ﴾ التي هي من الأحكام التي لا يتطرق إليها النسخ، وهي واجبة الرعاية في جميع الأديان ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ أي لا تشرك مع الله غيره من صنم أو بشر، وكرره للتنبيه على أن التوحيد، مبدأ الأمر ومنتهاه، وأنه رأس الحكمة وغايته ﴿ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا ﴾ أي تلوم نفسك، ويلومك الناس والملائكة ﴿ مَدْحُورًا ﴾ مبعداً من رحمة الله تعالى، وفي إيراد الإلقاء، ازدراءً بالمشركين، وجعل لهم من قبيل خشبة، يأخذها آخذ، فيطرحها في النار.

﴿ أَفَأَصْفَكَ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَقَائِلُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ ﴿٤٠﴾ .

﴿ أَفَأَصْفَكَ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا ﴾ الإصفاء بالشيء: جعله خالصاً، والهمزة للإنكار، أي أفضلكم على جنابه، فخصكم بأفضل الأولاد، وأثر لذاته أحسنها؟ وهو توبيخ للعرب في مزاعمهم الباطلة، كما في قوله تعالى: ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴾؟ وقوله: ﴿ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ ﴾؟ ﴿ إِنَّكُمْ لَقَائِلُونَ ﴾ بمقتضى مذهبكم الباطل، في إضافة البنات إلى الله سبحانه ﴿ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ أي كلاماً عظيماً في بشاعته وشناعته، مخالفاً لقضايا العقول، بحيث لا يجترىء عليه أحد، حيث تجعلونه تعالى من قبيل الأجسام،

ثم تضيفون إليه ما تكرهون، وتفضلون عليه أنفسكم بالبنين، ثم تصفون الملائكة الذين هم أشرف الخلائق بالأنوثة، فيا لها من ضلالة ما أقبحها!! .

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾ .

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ أي بيّنا هذا المعنى، وكرّرناه، يعني العبر، والحكم، والأمثال، والأحكام، والحجج، والأخبار ﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ على وجوه من التصريف في مواضع منه ﴿لِيَذَكَّرُوا﴾ ما فيه، ويقضوا على بطلان ما يقولونه، أي كرّرناه ليتّعظوا ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ أي والحال ما يزيدهم ذلك البيان والتذكير البديع ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ عن الحق، وإعراضاً عنه، فضلاً عن التذكر، وكان الثوري رحمه الله إذا قرأها يقول: يا ربّ زادني خضوعاً، ما زاد أعداءك نفوراً.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا بُغْوًا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٦﴾﴾ .

﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ أي كما يقول المشركون، والمراد بالمشابهة: الموافقة والمطابقة ﴿إِذَا لَا بُغْوًا﴾ جواب عن مقاتلهم أي طلبوا ﴿إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ﴾ أي إلى من له الملك والربوبية على الإطلاق ﴿سَبِيلًا﴾ بالمغالبة والممانعة، كما هو ديدن الملوك بعضهم مع بعض، كقوله سبحانه: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ .

﴿سَبِّحْهُمْ وَتَعَلَّىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوءًا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾ .

﴿سَبِّحْهُمْ﴾ أي تنزه ذاته تنزهاً حقيقياً ﴿وَتَعَلَّىٰ﴾ تباعد وتقدّس ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ من العظيمة أن معه آلهة، وأن يكون له بنات ﴿عُلُوءًا﴾ تعالياً ﴿كَبِيرًا﴾ لا غاية وراءه، كيف لا وأنه عزّ وجلّ في أقصى غاية الوجود الذاتي، وما يقولونه من أن له شريكاً وأولاداً، في أبعد مراتب العدم أعني الامتناع!! .

﴿ تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (٤٤).

﴿ تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ من الملائكة، والإنس، والجن، على أن المراد بالتسبيح معنى منتظم لما ينطق به لسان المقال، ولسان الحال، بطريق عموم المجاز ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ من الأشياء حيواناً كان، أو نباتاً، أو جماداً ﴿ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ أي يقول: سبحان الله وبحمده، أي ينزه الله تعالى بلسان الحال، عما لا يليق بذاته الأقدس، إذ ما من موجود إلا وهو يدُلُّ على أن له صانعاً، عليمًا قادرًا، حكيمًا واجباً لذاته، أو يُسَبِّحُه بلسان المقال، فإنَّ كلَّ موجود في الكون، له تسبيح خاص به، ولهذا قال ﴿ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ أيها المشركون، لإخلالكم بالنظر الصحيح الذي به يفهم ذلك، عن ابن عمر رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يخطب إلى جذع، فلما اتخذ المنبر، تحول إليه، فحنَّ الجذع فمسح بيده الشريفة عليه»^(١) ففي الأحاديث أن الجمادات والحيوانات تُسَبِّحُ الله عزَّ وجلَّ بطريقة لا نفهمها نحن كما قال تعالى: ﴿ وَالطَّيْرُ صَاقَاتٌ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾. وقال البعض: تسبيح الجمادات والحيوانات بلسان الحال، والقول الأول أصح لما دلت عليه الأحاديث، وأنه منقول عن السلف ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا ﴾ ولذلك لم يعاجلكم بالعقوبة، مع ما أنتم عليه من موجباتها، من الإِشْرَاقِ، والغفلة ﴿ غَفُورًا ﴾ لمن تاب منكم.

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾ (٤٥).

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ ﴾ الناطق بالتسبيح، ودعوتهم إلى العمل بما فيه

(١) حديث حنين الجذع أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الأنبياء.

من التوحيد، ورفض الشرك، وغير ذلك من الشرائع ﴿جَعَلْنَا﴾ بقدرتنا
ومشيئتنا المبنية على الحكم الخفية ﴿بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أوتر
الموصول ذماً لهم ﴿حِجَابًا﴾ يحجبهم من أن يدركوا نبوتك ليفهموا قدرك
﴿مَسْتُورًا﴾ مستوراً عن الحسن، يحجب عنهم فهم القرآن وإدراك أسراره
الدقيقة.

﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِرْتِ رَبِّكَ فِي
الْقُرْآنِ وَحَدُّهُ وَلَوْ أَعْلَىٰ أَدْبَرِهِمْ نُفُورًا﴾ ﴿٤٦﴾ .

﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي جعلنا على قلوب
هؤلاء الكفار المكذبين بالقرآن، أغطية وحجاباً لئلا يفهموا القرآن، كما
جعلنا على آذانهم صمماً يمنعهم من استماعه ﴿وَإِذَا ذُكِرْتِ رَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ
وَحَدُّهُ﴾ أي أفردته بالذكر غير مشفوع بألتهم ﴿وَلَوْ أَعْلَىٰ أَدْبَرِهِمْ﴾ رجعوا على
أعقابهم أي هربوا ونفروا ﴿نُفُورًا﴾ هرباً من استماع الإيمان والتوحيد،
كانت قریش إذا سمعوا من القرآن ذم المشركين وألتهم فروا هرباً من
سماعه.

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ
إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ ﴿٤٧﴾ .

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ﴾ أي نحن عالمون بما يدعوهم إلى الاستماع
له، وبالغاية التي يستمعون إلى القرآن من أجلها، وهي اللغو،
والاستخفاف، والهزاء بك وبالقرآن وأنت تقرأ كتاب ربك ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ
إِلَيْكَ﴾ ظرف لأعلم، وفائدته تأكيد الوعيد بالإخبار، أي حين يستمعون
إليك وأنت تتلو القرآن ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ﴾ أي وحين يتحدثون ويتناجون به فيما
بينهم سراً ﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ﴾ أي حين يقول أولئك الفجرة عن الرسول ﷺ

﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ﴾ أي ما تتبعون إن وجد منكم الاتباع ﴿إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ أي سحر فجنّ .

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ ﴿٤٨﴾ .

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ أي مثوك بالشاعر، والساحر، والمجنون ﴿فَضَلُّوا﴾ في جميع ذلك عن منهاج المحاجة ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ أي لا يجدون طريقاً إلى الهدى والرشاد، فيخبطون في كلامهم بدون تبصر.

﴿وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْنَا أَمْ نَأْتِي لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ ﴿٤٩﴾ ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ ﴿٥٠﴾ .

﴿وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْنَا﴾ استفهام إنكاري، والاستنكار للبعث لما بين غضاضة الحي، وبيوسة الرميم من التنافي، والرَّفَاتُ: ما بُولغ دَفُهُ وتفتيته، وقال الفراء: هو التراب ﴿أَمْ نَأْتِي لَمَبْعُوثُونَ﴾ تحلية الجملة يان واللام لتأكيد الإنكار، وفيه من الدلالة على غلوهم في الكفر، وتماديهم في الضلال ﴿خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أي مخلوقاً مجدداً؟ قال الله تعالى رداً عليهم .

﴿قُلْ﴾ أي قل يا أيها الرسول جواباً لهم ﴿كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ أي كونوا من الحجارة والحديد فسيبعثكم الله ويحييكم، والأمر هنا أمر تعجيز وتوبيخ، لا أمرٌ إلزام ليصبحوا من الحجارة والحديد.

﴿أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ ﴿٥١﴾ .

﴿أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ أي يعظم عندكم عن قبول الحياة فإنكم مبعوثون لا محالة، والمعنى: إنكم تستبعدون أن يجدد الله خلقكم،

بعدما صرتم عظاماً يابسة، مع أن العظام بعض أجزاء الحي، فليس بدع أن يرّدكم الله إلى الحالة الأولى، ولكن لو كنتم لو كنتم بعد شيء من الحياة، وهو أن تكونوا حجارة، أو حديداً، لكان الله قادراً على أن يرّدكم إلى حال الحياة، فكيف لا يقدر على إعادتكم إذا صرتم عظاماً ورفاتا؟ ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا﴾؟ مع ما بيننا وبين الإعادة من مثل هذه المباينة؟ ﴿قُلْ﴾ لهم تحقيقاً للحق، وإرشاداً لهم إلى طريقة الاستدلال ﴿الَّذِي فَطَرَكُمْ﴾ أي يرّدكم الذي خلقكم ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ واختراعكم من غير مثال وكنتم تراباً، فمن قدر على الإنشاء، قدر على الإعادة، ومتى سلمنا بكمال علم الله، وكمال قدرته، زالت هذه الشبهة ﴿فَسَيَنْفِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ أي سيحزكونها نحوك، تعجباً وإنكاراً ﴿وَيَقُولُونَ﴾ استهزاء ﴿مَتَى هُوَ؟﴾ أي ما ذكرته من الإعادة ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿عَسَى أَنْ يَكُونَ﴾ ذلك ﴿قَرِيبًا﴾ فإن كل ما أت قريب، و«عسى» للوجوب، فإن قالوا: فكيف يكون قريباً وقد انقضى ما يزيد على ألف عام ولم يظهر؟ قلنا: إذا كان ما مضى أكثر مما بقي كان أقل، فعمر الدنيا طويل، وما بقي منها إلا القليل!! .

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ .

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ من قبوركم إلى الموقف للمحاسبة، وهو النفخة الأخيرة كما قال الله تعالى: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِي الْمَنَادُ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾^(١) وهو إسرافيل عليه السلام ينادي الأموات ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ﴾ أي فتبعثون استعير لها الدعاء، والإجابة، إيذاناً بكمال سرعتها، وبأن المقصود منهما الإحضار للمحاسبة والجزاء ﴿بِحَمْدِهِ﴾ أي منقادين له حامدين له على كمال قدرته عند مشاهدة آثارها، عن سعيد بن جبیر أن رسول الله ﷺ قال:

(١) سورة ق، آية: ٤١ .

«ليس على أهل لا إله إلا الله، وحشة في قبورهم، كأنّي بأهل لا إله إلا الله يقومون من قبورهم، ينفضون التراب عن رؤوسهم» ويقولون: «سبحانك اللهم وبحمدك»^(١) ﴿وَتَطُنُّونَ﴾ عندما ترون ما ترون ﴿إِنْ لَيْتُمْ﴾ أي ما لبثتم في القبور ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ لما ترون من الهول.

﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنْ الشَّيْطَانُ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾^(٥٢).

﴿وَقُلْ لِعِبَادِي﴾ أي للمؤمنين ولفظ العباد في أكثر آيات القرآن مختص بالمؤمنين، قال الله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾^(٢) ويمكن أن يراد من العباد الكفار، لأن المقصود من هذه الآيات الدعوة فلا يبعد أن يخاطبوا بالخطاب الحسن ﴿يَقُولُوا﴾ عند مخاطبة المشركين ﴿الَّتِي﴾ أي الكلمة التي ﴿هِيَ أَحْسَنُ﴾ ولا يخاشنوهم، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(٣) ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ﴾ يفسد ويهيج الشر ﴿بَيْنَهُمْ﴾ فلعل ذلك يؤدي إلى تأكيد العناد، وتمادي الفساد ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ أي ظاهر العداوة.

﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يُرْحَمَكُمُ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبِكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾^(٥١).

﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ تفسير للتي هي أحسن، وما بينهما اعتراض، أي

- (١) الحديث أخرجه الطبراني، وفي رواية يقولون ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ وانظر مختصر تفسير ابن كثير ٣٨٢/٢.
 (٢) سورة الإنسان، آية: ٦.
 (٣) سورة العنكبوت، آية: ٤٦.

قولوا لهم هذه الكلمة ونحوها، ولا تصرّحوا بأنهم من أهل النار، فإنه يهيجهم على الشرّ، مع أن اختتام أمرهم غيب، لا يعلمه إلاّ الله ﴿إِنْ يَشَأْ يُرْحَمَكُمُ﴾ بالتوفيق للإيمان ﴿أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبِكُمْ﴾ بالإماتة على الكفر ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ موكولا إليك أمرهم، تقسرهم على الإيمان وإنما أرسلناك مبشراً ونذيراً، فدارهم ومز أصحابك بالمداراة، والاحتمال، وترك المشاقة.

﴿ وَرَبِّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ۗ ﴾

﴿ وَرَبِّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ وتفصيل أحوالهم التي بها يستأهلون الاصطفاء، فيختار منهم لنبوته من يشاء، وهو ردّ عليهم إذ قالوا: بعيدٌ أن يكون يتيم أبي طالب نبياً، وأن يكون العراة الجوّع أصحاب الجنة، دون أن يكون ذلك من الأكابر والصناديد!! ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ﴾ بالفضائل النفسانية، لا بكثرة الأموال والأتباع ﴿ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ بيان لحشية تفضيل داود عليه السلام، فإن ذلك بإيتاء الزبور، لا بإيتاء الملك والسلطنة، وفيه إيذان بتفضيل الرسول ﷺ فإن نعوته الجليلة، وكونه خاتم النبيين، مسطورة في الزبور، وأن المراد بعباد الله الصالحين في قوله تعالى: ﴿ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ هو الرسول ﷺ وأمته، والزبور يشتمل على مائة وخمسين سورة، كلها دعاء وثناء، ليس فيه أحكام.

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشَفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا نَحْوِيلًا ۗ ﴾

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾ إنها آلهة ليس المراد بها الأصنام، لأنه تعالى قال في صفتهم: ﴿ يَتَّبِعُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الوسيلة ﴾ فهذه الآية نزلت فيمن عبدوا

الملائكة، والمسيح، وعزير لا في الأوثان ﴿مَنْ دُونِهِ﴾ من الملائكة والمسيح ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ﴾ فلا يستطيعون ﴿كَشَفَ الصُّرْعَنَكُمُ﴾ كالمرض، والفقر، والقحط، ونحو ذلك ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ أي ولا تحويل ذلك عنكم إلى غيركم، فمن لا يقدر لا يكون إلهاً.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي الآلهة الذين يدعوهم المشركون ﴿يَبْتَغُونَ﴾ يطلبون لأنفسهم ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ ومالك أمرهم ﴿الْوَسِيلَةَ﴾ القرية بالطاعة والعبادة ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ أي يتبغي من هو أقرب منهم، إلى الله تعالى الوسيلة، فكيف بغير الأقرب؟ ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ﴾ بها ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ بتركها كدأب سائر العباد، فكيف تزعمون أنهم آلهة؟ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ حقيقة بأن يحذره كل أحد، حتى الملائكة والرسل عليهم السلام.

﴿وَلِإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْفَيْكَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾.

﴿وَلِإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ﴾ كلمة «إن» نافية، و«من» زائدة للتأكيد، والمراد بالقرية القرية الكافرة، أي ما من قرية من قرى الكفار ﴿إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا﴾ أي مخربوها البتة بالخسف بها، أو يهلك أهلها بالمرّة، لما ارتكبوا من عظام الموبقات المستوجبة لذلك ﴿قَبْلَ يَوْمِ الْفَيْكَةِ﴾ وإنما قيل قبل يوم القيامة، لأن الإهلاك يومئذ، غير مختص بالكافرة، ولا هو بطريق العقوبة، إنما هو لانقضاء عمر الدنيا ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا﴾ أي معذبو أهلها ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ بفنون العقوبات الأخروية، حسبما يفصح عنه إطلاق التعذيب، كيف لا وكثير من القرى العاتية، أُخِّرَتْ عقوبتها إلى يوم

القيامة، ﴿كَانَ ذَلِكَ﴾ ما ذكر من الإهلاك والتعذيب ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ في اللوح المحفوظ ﴿مَسْطُورًا﴾ مكتوباً لم يغادر منه شيء إلا بيّن فيه .

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوْلُونَ وَعَآئِنَا نُمُودُ
النَّافَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ .

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ﴾ التي اقترحها المشركون من قلب الصفا ذهباً، وأن تُنحَى الجبال عنهم، ليزرعوا ونحو ذلك ﴿إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوْلُونَ﴾ أي الأمم السابقة كذبوا بها حين جاءتهم باقتراحهم، وعدم إرسالها لا لمنع مانع عنه، بل لإفضائه إلى أن يحل بهم مثل ما حلّ بالمكذبين السابقين، بحكم التكذيب، المستدعي للاستئصال، المخالف لما جرى به قلم القضاء، من تأخير عقوبات هذه الأمة إلى الآخرة، لحكم باهرة، من جملتها ما يتوهم من إيمان بعض أعقابهم، ولهذا عبّر عن تلك المنافاة بالمنع، أي ما تركنا إجابتهم إلى ما طلبوا واقترحوا، من إحياء الموتى، وإجراء الأنهار، وإزالة الجبال، إلّا لعلمنا بعدم إيمانهم، وأنهم لو أعطوها لكذبوا، كما فعل أسلافهم الأولون، وعند ذلك يستحقون عذاب الاستئصال، والله سبحانه يعلم أنّ من أبنائهم من يؤمن بالله، فلذلك لم يجبههم إلى ما طلبوا، لئلا يهلكوا كما هلك السابقون.

ثم ذكر بعض الأمم المهلكة بتكذيب الآيات المقترحة فقال: ﴿وَعَآئِنَا نُمُودُ النَّافَةَ﴾ بسؤالهم ﴿مُبْصِرَةً﴾ آية بينة ذات إِبْصَارٍ أو بصائر تدركها الناس ﴿فَظَلَمُوا﴾ فكفروا ﴿بِهَا﴾ ظالمين لأنفسهم ولم يكتفوا بمجرد الكفر بها، بل فعلوا بها ما فعلوا من العقرب، وتخصيصها بالذكر لما أن ثمود عرب مثلهم، وأن لهم من العلم بحالهم حيث يشاهدون آثار هلاكهم ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ أي وما نرسل بالآيات الكونية، كالزلازل، والفيضانات، والصواعق، والرعد، إلا تخويفاً للعباد، لما يعقبها من العذاب المستأصل.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾ ﴿٦﴾ .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ﴾ علماء، فلا يخفى عليه شيء، من أفعالهم الماضية والمستقبلية، من الكفر والتكذيب فلا تبال بهم ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾ المراد بالرؤيا ما عاينه ﷺ ليلة المعراج، حسبما ذكر في فاتحة السورة الكريمة، والتعبير عن ذلك بالرؤيا لأنها وقعت في الليل، والعرب تقول: رأيت بعيني رؤية، ورؤيا، قال البخاري عن ابن عباس: «هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به، وليست برؤيا منام»^(١) أي وما جعلنا الرؤيا التي أريناها عياناً، مع كونها آية عظيمة، وحقيقة ملموسة، إلا فتنة افتتن بها الناس، حتى ارتد بعضهم عن الإسلام ﴿ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ﴾ المراد بلعنها: لعن طاعمها، أو إبعادها عن الرحمة، فإنها تنبت في أصل الجحيم، في أبعد مكان من الرحمة، والعرب تقول لكل طعام مكروه وضار: إنه ملعون، ويعني بها شجرة الزقوم، التي وصفها الله تعالى في سورة الدخان في قوله سبحانه: ﴿ إِنْ شَجَرَةُ الزَّقُومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ . كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ . كغلي الحميم ﴾^(٢) أي وما جعلناها إلا فتنة لهم، حيث أنكروا ذلك، وقالوا: إن محمداً يزعم أن الجحيم يحرق الحجارة، ثم يقول ينبت فيها الشجر!! ولقد ضلوا في ذلك ضلالاً بعيداً، حيث كابروا قضية عقولهم، فإنهم يرون النعامة تبتلع الجمر فلا تضرها، ويشاهدون المناديل المتخذة من وَبَرِ السَّمَنْدَلِ تُلقَى في النار، فلا تؤثر فيها ولا تحرقها، ويرون أن في كل شجرة ناراً، فجاز أن

(١) انظر صحيح البخاري كتاب التفسير تفسير سورة الإسراء ٨/٣٩٨ .

(٢) سورة الدخان، الآيات: ٤٣ - ٤٦ .

يخلق في النار شجرة لا تحرقها النار ^(١) ﴿وَنُحُوفُهُمْ﴾ بذلك وبنظائرها من الآيات، فإن الكل للتخويف، وإيثار صيغة الاستقبال للدلالة على التجدد والاستمرار ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ التخويف ﴿إِلَّا طُعِينًا كَبِيرًا﴾ متجاوزاً عن الحد، فلو أرسلنا بما اقترحوه من الآيات، لفعلوا بها ما فعلوا بنظائرها، ولا يزدادون إلا تمادياً في الجهل والعناد، وإذا كان الأمر كذلك وجب في الحكمة أن لا يظهر الله لهم ما اقترحوه من الآيات.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ .

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ أي اذكر يا محمد حين أمرنا الملائكة بالسجود لآدم، فامثلوا للأمر وسجدوا له إلا إبليس اللعين، تكبر وتجبّر، وعصى أمر ربه، والآية تحقيق لمضمون ما سبق من قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ الآية، ويعلم من حال الملائكة حال غيرهم، من عيسى وعزير عليهما السلام، ومن حال إبليس حال من يعاند الحق، لأنهم إنما عاندوه لأمرين: الكبير، والحسد، وهذه بليّة للخلق ﴿قَالَ﴾ أي عندما وُيخ بقوله عز وجل: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ لَا تُسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾؟ ﴿ءَأَسْجُدُ﴾ وأنا من عنصر عال ﴿لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ نصب على نزع الخافض أي أسجد لمن خلقت من طين؟ فاستحق بذلك اللعن والطرده من رحمة الله.

﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَحْتَسِبَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ .

(١) هناك ثياب يلبسها رجال الإطفاء ويقتحمون النار بها فلا تحرقها، فلا يستبعد العاقل على قدرة الله، أن تنبت شجرة في النار ولا تأكلها النار، ونحن نرى في عصرنا غرائب وعجائب من صنع الإنسان، فكيف بخالق الأكوان؟ .

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ ﴾ الكاف للتأكيد أي أخبرني عن ﴿ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَعَلَى ﴾ لم كرمته؟ ومراده الاستحقار ﴿ لَيْنَ آخِرَتَيْنِ ﴾ حياً ﴿ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ واللام للقسمة وجوابه ﴿ لِأَحْتَنِكَ ذُرِّيَّتَهُ ﴾ لأستأصلنهم بالإغواء كقوله: ﴿ لِأَعُوذَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ منهم، وهم المخلصون الذين عصمهم الله تعالى.

﴿ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴾ ﴿ ١٣ ﴾ .

﴿ قَالَ أَذْهَبَ ﴾ أي امض لشأنك الذي اخترته وهو طرد له، وتخلية ما بينه وبين ما سولت له نفسه ﴿ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ ﴾ أي جزاؤك وجزاؤهم، فغلب المخاطب على الغائب ﴿ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴾ أي جزاء كاملاً وافراً، لا ينقص لكم منه شيء.

﴿ وَأَسْتَفْزِرُ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمُ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكِهِمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ ﴿ ١٤ ﴾ .

﴿ وَأَسْتَفْزِرُ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ ﴾ استخف واستعجل، وأزعج من استطعت أن تستفزّه ﴿ بِصَوْتِكَ ﴾ أي بدعائك لهم إلى الفساد ﴿ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمُ ﴾ أي صح عليهم، من العجلة وهي الصباح ﴿ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ بأعوانك من راجل وراكب، من أهل الفساد، قال ابن عباس: إن له خيلاً ورجلاً من الإنس والجن، فما كان من راكبٍ يقاتل في معصية الله فهو من خيل إبليس، ومن كان يقاتل في معصية الله، فهو من رَجُلٍ إبليس، والرجلُ: اسم جمع للراجل، كالصحب والركب ويجوز أن يكون استفزازه، تمثيلاً لتسلطه على من يغويه ﴿ وَشَارِكِهِمْ فِي الْأَمْوَالِ ﴾ بحملهم على كسبها، وجمعها من الحرام، والتصرف فيها بإنفاقها في المعاصي ﴿ وَالْأَوْلَادِ ﴾ بالحث على التوصل

إليهم بالأسباب المحرمة، والإضلال لهم بالحمل على الأديان الزائغة، والحرّف الذميمة، والأفعال القبيحة ﴿وَعَدَّهُمْ﴾ المواعيد الباطلة، كشفاعة الآلهة، والانتكاء على كرامة الآباء، وتأخير التوبة بطول الأمل ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أي وما يعدهم إلا خداعاً وتضليلاً بوساوسه الكاذبة.

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ (٦٥).

﴿إِنَّ عِبَادِي﴾ الإضافة للتشريف، وهم المخلصون من المؤمنين الصادقين ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ أي تسلط وقدرة على إغوائهم ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ أي عاصماً وحافظاً لهم من كيدك وشرك، يتوكلون عليه، للخلاص عن إغوائك، والتعرض لوصف الربوبية للإشعار بكيفية كفايته تعالى لهم، أعني سلب قوته، عن إغوائهم بدفع كيده، ويعصمهم من إغوائه، وقد استشكل بعض المتكلمين، خطاب الرب سبحانه للشيطان، وأمر الله تعالى إياه بإغواء البشر، بقوله تعالى: ﴿وَاسْتَفْزِزْ﴾ الآية مع قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ الآية؟.

وإنما يشكل هذا كله على ما جرّوا عليه من جعل الخطاب للتكليف، أمّا إذا جعل الخطاب للتكوين، كما صرح به ابن كثير فلا إشكال^(١)، لأنه عبارة عن بيان الواقع في صفة طبيعة الشيطان.

﴿رَبِّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (٦٦).

﴿رَبِّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ﴾ الإزجاع السوّق حالاً بعد

(١) قال الحافظ ابن كثير ٣٨٧/٢: هذا أمرٌ قَدْرِيٌّ، ومعناه: تسلط عليهم بكل ما تقدر عليه. اهـ أقول: لا يراد به أن الله عزّ وجلّ يأمره بإغواء البشر، وفتنتهم عن الدين، بطرقه الخبيثة، وإنما هو بيان لصفة طبيعة الشيطان، ففتنّه والله يركعك.

حال، أي هو القادر الحكيم، الذي يسوق لمنافعكم الفلك، ويجريها في البحر ﴿لِيَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ من رزقه الذي هو فضل من قبله، وهذا تذكير لبعض النعم التي هي دلائل التوحيد، والمقصود الأعظم في هذا الكتاب الكريم دلائل التوحيد، فإذا امتد الكلام في فصل من الفصول، عاد الكلام إلى ذكر دلائل التوحيد ﴿إِنَّهُ كَانَ﴾ أي أزلماً وأبداً ﴿يَكُم رَحِيمًا﴾ حيث هياً لكم ما تحتاجون إليه، والمراد بالرحمة: الرحمة الدنيوية، وفي قوله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ﴾ وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ﴾ الضمير عام في حق الكل.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ (١٧).

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ﴾ خوف الغرق ﴿فِي الْبَحْرِ ضَلَّ﴾ ذهب عن خواطركم ﴿مَنْ تَدْعُونَ﴾ كل من تدعونه من دون الله، من الملائكة، والمسيح أو غيرهم ﴿إِلَّا إِلَاهُ﴾ وحده، من غير أن يخطر ببالكم أحد منهم، وتدعوه لكشفه، أو ضلَّ من تدعونه من إغاثتكم وإنقاذكم، ولم يقدر على ذلك إلا الله عزَّ وجل ﴿فَلَمَّا نَجَّكُمْ﴾ من الغرق وأوصلكم ﴿إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ عن التوحيد ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ للنعم، والصيغة للمبالغة، أي كثير الكفران لنعم الرحمن.

﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا الْكَرَّةَ وَكَيْلًا﴾ (١٨).

﴿أَفَأَمِنْتُمْ﴾ الهمزة للإنكار، أي نجوتم فحملكم ذلك على الإعراض ﴿أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾ الذي هو مأمنكم أي يقبله الله عليكم ملتبساً بكم، وحاصل المعنى: أن الجوانب كلها بالنسبة إلى قدرته عزَّ وجلَّ سواء، برأ كانت أو بحرأ، ليس جانب البحر وحده، مختصاً بسبب الهلاك، بل إن كان الغرق في جانب البحر، ففي جانب البرِّ الخسفُ

والزلازل، والفيضانات ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ ريحاً ترمي بالحصباء أي نمطر عليكم حجارة من السماء ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً﴾ يحفظكم عن ذلك، أو يصرفه عنكم، فإنه لا رادّ لأمره الغالب.

﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِصًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ ﴿٦٩﴾ .

﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ﴾ أي يعيدكم في البحر ﴿تَارَةً﴾ مرة ﴿أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِصًا﴾ أي عاصفاً ﴿مِنَ الرِّيحِ﴾ وهي التي لا تمرُّ بشيء إلا كسرته، أو الريح التي لها قصف وهو الصوت الشديد ﴿فَيُغْرِقَكُم﴾ بعد كسر سفينتكم كما ينبىء عنه عنوان القصف ﴿بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ بسبب إشراككم وكفرانكم لنعمة الإنجاء ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ أي ثائراً متابعاً، يطالبنا بما فعلنا، ذكراً للثأر، كما يفعله الأقوياء.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَبْرِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ ﴿٧٠﴾ .

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ أي كرّمناهم بحسن الصورة، واعتدال القامة، والتميز بالعقل، والإفهام بالنطق، والخط والاهتداء إلى أسباب المعاش، وغير ذلك مما لا يكاد يحيط به نطاق العبارة، ومن جملة ذلك أن كل حيوان يتناول طعامه بفمه إلا الإنسان، فإنه يرفعه إليه بيده ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَبْرِ وَالْبَحْرِ﴾ على الدواب والسفن، وليس من المخلوقات شيء كذلك ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ فنون النعم، وضروب المستلذات ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ﴾ في العلوم، والإدراكات بما ركبنا فيهم من القوى المدركة، التي بها يتميز الحق من الباطل، والحسن من القبح ﴿عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا﴾ وهم ما عدا الملائكة، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «المؤمن أكرم على الله من الملائكة، لأنهم مجبولون على الطاعة، ففيهم عقل بلا شهوة،

وفي البهائم شهوةٌ بلا عقل، وفي الآدمي كلاهما، فمن غلب عقله شهوته، فهو أكرم من الملائكة، ومن غلبت شهوته على عقله فهو شر من البهائم ﴿تَفْضِيلًا﴾ عظيمًا، فحقَّ عليهم أن يشكروا هذه النعم، ولا يكفروها، وليس فيه دلالة على أفضلية الملائكة، فإن المراد ههنا بيان التفضيل في أمر مشترك بين جميع أفراد البشر صالحها وطالحها، ولا يمكن أن يكون ذلك هو الفضل في عظيم الدرجة، وزيادة القربة عند الله سبحانه.

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسِ بِإِمْنِهِمْ فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ ﴿٧٦﴾ .

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسِ بِإِمْنِهِمْ﴾ أي ندعو كل شخص من بني آدم، وهذا شروع في بيان تفاوت أحوالهم في الآخرة، بحسب أعمالهم وأحوالهم في الدنيا، وقوله سبحانه: ﴿بِإِمْنِهِمْ﴾ أي بكتاب أعمالهم فيقال: «يا أهل كتاب الخير، ويا أهل كتاب الشر» ويدل على أن المراد بالإمام هو كتاب الأعمال، قوله سبحانه: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿فَمَنْ أُوْتِيَ﴾ يومئذ من أولئك المدعويين ﴿كِتَابَهُ﴾ صحيفة أعماله ﴿بِیَمِينِهِ﴾ إبانة لخطر الكتاب المؤتى، وتشريفًا لصاحبه، وتبشيراً له بما في مطاويه ﴿فَأُولَئِكَ﴾ إشارة إلى «مَنْ» باعتبار معناه، إيداناً بأنهم حزبٌ مجتمعون على شأن جليل ﴿يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾ الذي أوتوه على الوجه المبين، ابتهاجاً وتبجحاً بما يرون فيه من الحسنات ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا يُنقصون من أجور أعمالهم، بل يُؤتونها مضاعفة ﴿فَتِيلًا﴾ أي قدر فتيل، وهو القشرة التي في شِقِّ النواة، أو أدنى شيء كان، والفتيل مثلٌ في القلة والحقارة.

﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ ﴿٧٧﴾ .

﴿وَمَنْ كَانَتْ﴾ من المدعويين المذكورين ﴿فِي هَذِهِ﴾ الدنيا التي فعل

بهم ما فعل، من فنون التكريم والتفضيل ﴿أَعْمَى﴾ فاقد البصيرة لا يهتدي إلى رشده، ولا يعرف ما أوليناه به من التكريم، فضلاً عن شكرها، والقيام بحقوقها ﴿فَهُوَ فِي الْأَخِرَةِ أَعْمَى﴾ أي لا يهتدي إلى ما ينجيه، لأن العمى الأول موجب للثاني، وفيه قولان: الأول: عمى البصيرة، والثاني: عمى العين، كما قال الله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾. قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا؟ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى^(١) ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي من الأعمى فاقد البصر، لزوال الاستعداد، وتعطيل الآلات بالكلية.

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِئَفْتَرِيَ عَلَيْكَ غَيْرَهُ
وَإِذَا لَاتَخَذُوا خَلِيلًا﴾.

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾ نزلت في وفد ثقيف إذ قالوا للرسول ﷺ لا ندخل في أمرك حتى تعطينا خصلاً نفتخر بها على العرب، وأن تحرم وادينا كما تحرم مكة وإن قالت العرب لم فعلت فقل إن الله أمرني بذلك فأمسك رسول الله ﷺ عنهم، وداخلهم الطمع فصاح عليهم عمر وقال: أما ترون رسول الله ﷺ قد أمسك عن الكلام، كراهية لما تذكرونه، فأنزل الله هذه الآية والمشركون كانوا يسعون في إبطال أمره ﷺ، فتارة كانوا يقولون: «إن عبادت آلهمنا عبدنا إلهتك» فأنزل الله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ السورة وعرضوا عليه الأموال الكثيرة، والنساء الجميلة، ليرتك الدعوة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا﴾ الآية. أي قاربوا أن يفتنوك أي يخدعوك ﴿عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ من أوامرنا ونواهيها ﴿لِيَفْتَرِيَ عَلَيْكَ غَيْرَهُ﴾ لتقول علينا غير الذي أوحينا إليك ﴿وَإِذَا لَاتَخَذُوا خَلِيلًا﴾ أي لو اتبعتهم على أهوائهم لكنك لهم خليلاً، ولخرجت من ولايتي.

(١) سورة طه، آية: ١٢٥ - ١٢٦.

﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ ﴿٧٤﴾ .

﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّنَّاكَ﴾ على ما أنت عليه من الحقِّ بعصمتنا لك ﴿لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ من الركون الذي هو أدنى ميل، أي لولا تثبيتنا لك، لقاربت أن تميل إليهم شيئاً يسيراً، من الميل اليسير، لقوة خدعهم، لكن أدركتك العصمة، فمنعتك من أن تقرب من أدنى مراتب الركون إليهم، وهذا صريح في أنه ﷺ ما همَّ بإجابتهم، ودليلٌ على أن العصمة بتوفيق الله تعالى، وعنايته، وهذا تهيجٌ من الله تعالى له، فلما نزلت كان ﷺ يقول: «اللهم لا تكلمي إلى نفسي طرفة عين» .

﴿إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ ﴿٧٥﴾ .

﴿إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ أي لو قاربت أن تركز إليهم أدنى ميل ﴿لَأَذَقْنَاكَ﴾ عذاب الدنيا والآخرة، ضعف ما يُعَذَّب به في الدارين، بمثل هذا الفعل غيرك، لأن خطأ الخطير أخطر، وكان أصل الكلام عذاباً ضعفاً في الحياة، وعذاباً ضعفاً في الممات، بمعنى مضاعفاً وقيل: ضعف الممات «عذاب القبر» ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ يدفع عنك العذاب، وينصرك منا .

«التقليد الأعمى للأجانب»

لقد ضعفت في هذا العصر عصبية المذاهب، ولا سيما في الفروع، فإن الجهل بحقيقته صار عاماً، وبعض العلماء أعماهم التقليد، عن النظر في مصالح الأمة، والسير بالقضاء والإدارة والسياسة، على ما تجددت عليه المصالح، حتى اقتنع بحكامها الجاهلون في أكثر البلاد، بأن الشريعة لم تعد كافية، فصاروا يقلدون الإفرنج فيما اشترعوا لأنفسهم من القوانين،

التي يرونها موافقة لعاداتهم، وآدابهم، وعقائدهم، وتقاليدهم، وإن لم تكن موافقة للمسلمين في شيء من ذلك، ولم يعقلوا ما في هذا التقليد من المفسدات السياسية والاجتماعية، المضعف للأمة في دينها ودنياها، بل حسبوا بجهلهم أنهم يكونون كالدول الأوروبية، في عزتها وثروتها، فكانت عاقبة هذا الإغواء أن سلبهم أولئك المغوون ملكهم، وجعلوهم أسلحة وآلات بأيديهم يذللون بهم أممهم، فلم يستطيعوا أن يقضوا على استقلال مملكة إسلامية، وقد اجتهد أولئك الطامعون المغوون بإفساد أفكار الشعوب الإسلامية وقلوبها فبثوا فيها الدعاة الفسقة، لتشكيكها في القرآن والنبوة، ومنهم من يشكك في أصل الدين، أي وجود الإله وبعثة الرسل، كما بثوا فيها دعاة السياسة، يرغبونها في قطع الرابطة الدينية، التي تربط بعضها ببعض، واستبدال الرابطة الجنسية أو الوطنية بها، فكانت عاقبة ذلك، وقوع العداوة بين الترك والعرب، غيّر هؤلاء بفساد أمرائهم وزعمائهم ما بأنفسهم، فغيّر الله ما بهم، وسلبهم عزهم، وسلطانهم، وهؤلاء هم: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (١)!! .

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٧٦) .

﴿وَإِنْ كَادُوا﴾ أي أهل مكة ﴿لَيَسْتَفِزُّوكَ﴾ أي ليزعجونك بمعاداتهم ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي أرض مكة ﴿لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ هم المشركون أن يخرجوه منها، فكفهم الله تعالى عنه، حتى أمره بالهجرة، فخرج بنفسه ﷺ ﴿وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ﴾ أي لا يبقون ﴿خِلافَكَ﴾ أي بعدك ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي إلا زماناً قليلاً، وقد كان كذلك، فإنهم أهلكوا بدر بعد هجرته ﷺ بسنة .

(١) سورة الكهف، آية: ١٠٤ .

﴿ سُنَّةٌ مَن قَدِ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا يَجِدُ لِسُنَّتِنَا مَحْوِيًّا ﴾ (٧٧).

﴿ سُنَّةٌ مَن قَدِ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ﴾ أي سنَّ الله سنةً، والمعنى: هذه عادة الله جل وعلا مع رسله، أن يهلك كل أمة، أخرجت رسولها من بين أظهرهم، وإضافتها إلى الرسل، لأنها سُنَّت لأجلهم، على ما ينطق به قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَجِدُ لِسُنَّتِنَا مَحْوِيًّا ﴾ أي تغييراً وتبديلاً.

﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ (٧٨).

﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ ﴾ أي حافظ على الصلوات في أوقاتها لكي ينصرك الله، أمره تعالى بالإقبال على عبادته، لكي ينصره عليهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ ﴾ الآية ﴿ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ ﴾ الذُّلُوكُ: هو الزوال، وهو قول عطاء وقتادة، ومجاهد، وأكثر التابعين، والآية جامعة لمواقيت الصلاة كلها، فذلوك الشمس يتناول الظهر والعصر ﴿ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ ﴾ أي ظهور ظلمته، وهذا يتناول المغرب والعشاء، وليس المراد إقامتها فيما بين الوقتين على وجه الاستمرار، بل إقامة كل صلاة في وقتها، الذي عُيِّن لها ببيان جبريل عليه السلام ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ﴾ أي صلاة الفجر، سميت قرآناً لأنه ركنه ولطول قراءتها ﴿ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ تشهده ملائكة الليل والنهار، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تفضل صلاة الجمع، صلاة أحدكم وحده، بخمس وعشرين جزءاً، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر، ثم يقول أبو هريرة اقرؤوا إن شئتم ﴿ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾»^(١).

(١) أخرجه البخاري رقم ٦٤٥ بنحوه.

﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ (٧٩)

﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ ﴾ أي قم بعض الليل ﴿ فَتَهَجَّدْ ﴾ أي أزل وألق الهجود عنك أي النوم وتعبد ربك في ظلمة الليل تطوعاً ﴿ بِهِ ﴾ أي بالقرآن ﴿ نَافِلَةً لَكَ ﴾ فريضة زائدة على الصلوات المفروضة، خاصة بك، زيادة له ﷺ في الدرجات ﴿ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ ﴾ الذي يبلغك إلى كمالك بعد الموت الأكبر، كما انبعثت من النوم الذي هو الموت الأصغر بالصلاة والعبادة ﴿ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ عندك وعند جميع الناس، وفيه تهوين لمشقة قيام الليل عن المغيرة بن شعبة قال: قام رسول الله ﷺ حتى انتفخت قدماه، فقيل له أتتكلف هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»^(١) عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة، والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة»^(٢).

﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴾ (٨٠)

﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي ﴾ أي القبر ﴿ مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾ أي إدخالاً مرضياً ﴿ وَأَخْرِجْنِي ﴾ منه عند البعث ﴿ مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ أي إخراجاً مرضياً ملقياً بالكرامة وقيل: المراد إدخال المدينة والإخراج من مكة، ﴿ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴾ حجة تنصرنني على من يخالفني، وعزاً ناصراً للإسلام،

(١) أخرجه البخاري رقم ١١٣٠ ومسلم في المنافقين رقم ٢٨١٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه رقم ٦١٤.

مظهراً له على الكفر، فأجيبته دعوته ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ ألا إن حزب الله هم الغالبون.

﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ .

﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ ﴾ الإسلام والقرآن ﴿ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ﴾ أي ذهب وهلك الشرك والكفر، من زهق روحه إذا خرج ﴿ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ أي شأنه أن يكون مضمحلاً، غير ثابت، وهو عِدَّةٌ كريمة بإجابة الدعاء، عن عبد الله ابن مسعود قال: دخل النبي ﷺ مكة يوم الفتح وكان حول البيت ثلاثمائة وستون صنماً، فجعل يطعنهما بعود في يده، ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل، إنَّ الباطل كان زهوقاً، جاء الحقُّ وما يُبْدى الباطلُ وما يعيد»^(١).

﴿ وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾ .

﴿ وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ ﴾ لما في الصدور، شفاءً للأمراض الباطنة، والظاهرة، فالأمراض الباطنة إما اعتقادات فاسدة، وإما أخلاق ذميمة، فالقرآن الكريم مشتمل على الدلائل القاطعة لمذاهب الحق، ولإبطال المذاهب الفاسدة، ومشتمل أيضاً على التنفير من الأخلاق المذمومة، والإرشاد إلى الأخلاق المحمودة والأعمال الفاضلة، وأما كونه شفاءً، من الأمراض الجسمانية، فإن التبرك بقراءته يدفع كثيراً من الأمراض، يدل عليه قوله ﷺ في فاتحة الكتاب «وما يدريك أنها رقية»؟^(٢)

(١) أخرجه البخاري ١٤/٨ في المغازي ومسلم رقم ١٧٨١ في الجهاد.
(٢) هذا طرف من حديث شريف أخرجه البخاري في قصة الصحابي الذي رقى بفاتحة الكتاب رئيس قبيلة فسفي بإذن الله، فلما أخبر الرسول ﷺ بذلك، قال له: «وما يدريك أنها رقية»؟

ولما اعترف الجمهور من الفلاسفة بأن لقراءة الرُّقَى المجهولة، التي لا يفهم منها شيءٌ آثاراً في تحصيل المنافع، ودفع المفساد، فلأن تكون قراءة هذا القرآن العظيم، المشتمل على ذكر الله، وكبريائه، سبباً لحصول النفع، كان أولى ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي تفريجاً للكروب، وتطهيراً للعيوب، وتكفيراً للذنوب ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ و «مِنْ» بيانية، فإن القرآن كله شفاء ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي لا يزيد القرآن الكافرين المكذبين، إلا شقاءً وبلاءً، وهلاكاً ودماراً، فإن ما بهم من داء الكفر والضلال، حقيق بأن يكون سبباً للشقاء والهلاك، فسماع القرآن الكريم يزيدهم غيظاً وغضباً، وحقداً وحسدًا، وهذه الأخلاق الذميمة تدعوهم إلى الأعمال الباطلة والهلاك المؤبد، وإسناد الزيادة للقرآن مع أنهم هم المزدادون في ذلك، بسوء صنيعهم، باعتبار كونه سبباً لذلك، وفيه تعجيبٌ من أمر القرآن العظيم، حيث يكون مداراً للشفاء والهلاك.

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَى بِحَنَانِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَتُوسَّأُ﴾

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ بالصحة والنعمة ﴿أَعْرَضَ﴾ عن ذكرنا فضلاً عن القيام بموجب الشكر ﴿وَنَسَى بِحَنَانِهِ﴾ تأكيد للإعراض، والنأي بالجانب عبارة عن الاستكبار، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ﴾ ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ من فقر، أو مرض، أو نازلة من النوازل ﴿كَانَ يَتُوسَّأُ﴾ أي شديد اليأس من روحنا «ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون»، وهذا وصفٌ للجنس باعتبار بعض أفرادهم، ولا ينافيه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فُدُو دُعَاءَ عَرِيضٍ﴾ ونظائره، فإن ذلك شأن بعض الآخرين منهم، وفي إسناد المساس إلى الشر، بعد إسناد الإنعام إلى ضمير الجلالة، إيذانٌ بأن الخير مرادٌ بالذات، والشر ليس كذلك.

﴿ قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴾ .

﴿ قُلْ كُلُّ ﴾ أي كلُّ أحد منكم وممن هو على خلافكم ﴿ يَعْمَلُ ﴾ عمله ﴿ عَلَى شَاكِلَتِهِ ﴾ أي على طريقته التي تشاكل حاله في الهدى والضلال، والعقلاء اختلفوا في أن النفوس البشرية، هل هي مختلفة بالماهية أم لا؟ منهم من قال بالأول، وقال: إن اختلاف أفعالها وأحوالها لأجل اختلاف جواهرها وماهيتها، ومنهم من قال متساوية في الماهية، واختلاف أفعالها لاختلاف أمزجتها، والمختار عندي هو الأول، والقرآن مشعرٌ بذلك، وذلك لأنه تعالى بيّن في الآية المتقدمة، أن القرآن بالنسبة إلى البعض يفيد الشفاء والرحمة، وبالنسبة إلى الآخرين يفيد الخسار والخزي، ثم أتبعه بقوله: ﴿ قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ ﴾ ومعناه أن اللائق بتلك النفوس الطاهرة أن يظهر فيها من القرآن آثار الذكاء والكمال، وبتلك النفوس الكدرة، أن يظهر فيها من القرآن آثار الخزي والضلال، كما أن الشمس تعقد الملح، وتلين الدهن، وتبيض ثوب القصار، وتسود وجهه، فكل أحد يفعل على وفق ما شاكل جوهر نفسه، فإن كانت نفسه مشرقة طاهرة خيرة، صدرت عنه أفعال فاضلة، وإن كانت نفسه كدرة خبيثة، صدرت عنه أفعال خسيصة وفاسدة ﴿ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴾ .

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ﴾ أي ربكم جلّ وعلا أعلم بالمهتدي والضال منكم، وسيجزي كلّ عامل بعمله، عن عبد الله بن مسعود قال: «بينا أنا أمشي مع النبي ﷺ، فمر بنفرٍ من اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح؟ فقام إليه رجل منهم، فقال يا أبا القاسم: ما الروح؟ فأمسك النبي ﷺ فلم يردّ عليهم شيئاً، فعلمت أنه يوحى إليه، فقامت مقامي، فأنزل الله

عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ...﴾^(١) الآية وعن ابن عباس أن السائل إنما سأله بتكليف من اليهود، والظاهر أن السؤال كان عن حقيقة الروح، الذي هو يدبّر البدن الإنساني، ومبدأ حياته ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ كلمة «مِنْ» بيانية، أي الروح من إبداع الله عَزَّ وَجَلَّ من غير تولّد من أصل، والأمر بمعنى الشأن والإضافة للاختصاص، أي أمر الروح من جنس ما استأثر الله بعلمه، من الأمور الخفية، التي لا يكاد يحوم حولها عقول البشر ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي وما علمكم أيها البشر جميعاً، إلا شيء قليل وضئيل، بالنسبة لعلم الله جلّ وعلا، وهذا العلم تستفيدونه من طرق الحواس، فإن تعلق المعارف النظرية، إنما هو من إحساس الجزئيات، ولذلك قيل: من فَقَدَ حِسًّا فَقَدَ عِلْمًا، ولعل أكثر الأشياء لا يدركه الحسُّ، ولا شيئاً من أحواله، التي يدور عليها معرفة ذاته، فثبت أن أكثر الماهية والحقائق مجهولة، والحكمة في ذلك تعجيز العقل عن إدراك مخلوق مجاور له، ليدلّ على أنه عن إدراك ذات خالقه أعجز، وما قيل في تعريف الروح أنه جسم دقيق هوائي، في كل جزء من الحيوان، وقال بعضهم: هو الدم، وقال قوم هو نفس الحيوان، بدليل أنه يموت باحتباس النفس، وقال قوم هو جسمٌ لطيف يحيا به الحيوان، كل ذلك مما لا دليل عليه، وإنما هو تكهن، وأولى الأقوال بالصواب أن يوكل علمه إلى الله تعالى، وهو قول أهل السنة.

﴿وَلَيْنَ شِئْنَا لَنذَهِبَنَّ بِالذِّئَى أَوْحِينَا إِلَيْكَ مُّمَّ لَا يُحِدُّ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا
وَكَيْلًا﴾^(٨١).

﴿وَلَيْنَ شِئْنَا لَنذَهِبَنَّ بِالذِّئَى أَوْحِينَا إِلَيْكَ﴾ من القرآن الذي هو شفاء ورحمة للمؤمنين، ومنبئ للعلوم، واللام الأولى موطئة للقسَم، و«لنذهبن»

(١) الحديث أخرجه الشيخان عن ابن مسعود وانظر فتح الباري ٤٠١/٨ كتاب التفسير.

جوابه النائب مناب جزاء الشرط، فالمعنى: إن شئنا ذهبنا بالقرآن، ومحوناه من الصدور والمصاحف، وهذا وإن كان أمراً مخالفاً للعادة، إلا أنه تعالى قادر عليه ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُكَ بِهِ﴾ أي بالقرآن ﴿عَلَيْنَا وَكَيْلًا﴾ أي من يتوكل استرداده، مسطوراً محفوظاً.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِن فَضَّلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ .

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي إلا أن يرحمك ربك فيردّه عليك، ويجوز أن يكون استثناءً منقطعاً، بمعنى: ولكن رحمةً من ربك، تركته غير مذهب به، فيكون امتناناً على رسوله، بإبقائه في صدره بعد المنة بتزيله، وترغيباً في المحافظة على أداء حقوقه ﴿إِن فَضَّلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ يجعلك رسولاً، وإنزال الكتاب عليك، وإبقائه في حفظك، وجعلك سيد ولد آدم، وختم النبيين بك، وإعطائك المقام المحمود، فلما كان كذلك، لا جرم أنعم عليك، بإبقاء العلم في صدرك، وإنزال القرآن عليك.

﴿قُل لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ .

﴿قُل﴾ للذين لا يعرفون جلاله قدر التنزيل، ولا يفهمون فخامة شأنه الجليل، بل يزعمون أنه من كلام البشر ﴿لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ﴾ اتفقت ﴿الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ المنعوت بما لا تدركه العقول من النعوت الجليلة، في البلاغة، وحسن النظم، وكمال المعنى وتخصيص الثقلين بالذكر، لأن المنكر لكونه من عند الله منهما لا من غيرهما، لا لأن غيرهما قادر على المعارضة ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ أي لا يأتون بكلام مماثل له، فيما ذكر من الصفات البديعية، وفيهم أربابُ البراعة والبيان، وهو جواب القسم ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ أي ولو اجتمع أرباب الفصاحة والبيان، من الإنس والجان، وتعاونوا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لم

يقدرُوا على ذلك، نزلت الآية الكريمة حين قال المشركون: لو نشاء لقلنا مثل هذا، فكذبهم الله عز وجل، لأنه كلام الخالق، لا كلام المخلوق، وهم أعجز من أن يأتوا بمثل سورة منه!! .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٩٠﴾ . ﴾

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا ﴾ كررنا ورددنا الحجج والبراهين ﴿ لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ ﴾ أي بينا للناس في هذا الكتاب المعجز ﴿ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ من كل معنى بديع، هو في الحسن والغرابة، ووقوعه في الأنفس كالمثل، ليتلقوه بالقبول ﴿ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ ﴾ المراد بأكثر الناس أكثر أهل مكة، وهم الكفار، أوتر الإظهار تأكيداً وتوضيحاً ﴿ إِلَّا كُفُورًا ﴾ أي إلا تكذيباً للحق وجحوداً لآيات الله .

﴿ وَقَالُوا ﴾ عند ظهور عجزهم عن معارضة القرآن ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ ﴾ أي أرض مكة ﴿ يَنْبُوعًا ﴾ عيناً لا ينضب ماؤها، تتدفق خلال وديان مكة .

﴿ أَوْ تَكُونُ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ . ﴾

﴿ أَوْ تَكُونُ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ ﴾ بستان تستر أشجاره ما تحتها ﴿ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ ﴾ أي تجريها بقوة ﴿ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴾ كثيراً، والمراد سقيها وإدامة إجرائها بقوة وغازاة .

﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتَ عَلَيْنَا أَكْثَرُ أَقْوَامٍ أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قِيْلًا ﴿٩٢﴾ . ﴾

﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتَ عَلَيْنَا كِسْفًا ﴾ جمع كِسْفَةٍ كَقِطْعَةٍ وَقُطْعٍ، لفظاً ومعنى، أي إسقاطاً مماثلاً لما زعمت كما كنت تخوفنا ﴿ أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةَ قِيَالًا ﴾ أي مقابلاً أو كفيلاً بما تقول، وشاهداً يشهد بصحة ما تدعيه من أنك رسول الله.

﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْفٍ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى نُنزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ .

﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرِفٍ ﴾ من ذهب، وأصله الزينة ﴿ أَوْ تَرْفٍ فِي السَّمَاءِ ﴾ أي في معارجها، فحذف المضاف يقال رقى في السلم ﴿ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ ﴾ أي لأجل رقيك فيها وحده ﴿ حَتَّى نُنزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا ﴾ فيه تصديقك ﴿ نَقْرُؤُهُ ﴾ نحن بأنفسنا من غير أن يتلقى من قبلك ﴿ قُلْ ﴾ تعجباً من شدة شكيمتهم، وتنزيهاً لساحة الرب جلّ وعلا من مثل هذه الاقتراحات ﴿ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا ﴾ لا ملكاً حتى يتصور لي الرقي في السماء ﴿ رَسُولًا ﴾ مأموراً من قبل ربي لتبليغ الرسالة كسائر الرسل؟ روي عن ابن عباس «أن رؤساء قريش اجتمعوا عند الكعبة، فبعثوا إلى الرسول ﷺ فجاءهم فقالوا يا محمد: إنا والله لا نعلم رجلاً من العرب، أدخل على قومه ما أدخلت على قومك!! لقد عبت الدين، وسفهت الأحلام، وشتت الآلهة، وفرقت الجماعة، فإن كنت جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً، جعلنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد الشرف، سوّدناك علينا، وإن كان هذا الذي بك رثياً تراه، قد غلب عليك، بذلنا لك أموالنا في طلب الطبّ حتى نبرئك منه (وكانوا يسمون التابع من الجن الرثي) فقال ﷺ: ما بي ما تقولون، وما جئكم بما جئكم به لطلب المال، ولا للشرف عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليّ كتاباً، وأمرني أن أكون بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالة ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني فهو حظكم من الدنيا والآخرة، وإن تردّوه عليّ أصبر

لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم»^(١)، فلما قال ذلك، تفوهوا بالاقتراحات الباطلة وما كانوا يقصدون بتلك الاقتراحات، إلا الاستهزاء، واللجاج، والعناد.

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾^(٩٤).

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا ﴾ الذين حكيت أباطيلهم يعني أهل مكة ﴿ إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ ﴾ أي النبي والقرآن المعجز، أي ما منعهم الإيمان بعد ظهور الحق، أن يؤمنوا بالقرآن وبنبوتك ﴿ إِلَّا أَنْ قَالُوا ﴾ أي إلا قولهم ﴿ أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾ منكرين أن يكون رسول الله، من جنس البشر مرسلًا إلى الخلق فلماذا يكون بشراً ولا يكون ملكاً؟! وفيه إيذانٌ بكمال عنادهم، حيث جعلوا بعثة الرسول من البشر، مانعاً لهم من الإيمان، ولم يستبعدوا أن تكون آلهتهم من الحجر!! .

﴿ قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴾^(٩٥).

﴿ قُلْ ﴾ تبيانا للحكمة، وتحقيقاً للحق المزيج للريب ﴿ لَوْ كَانَتْ ﴾ لو وُجد واستقر ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ بدل البشر ﴿ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ ﴾ كما يمشي بنو آدم ﴿ مُطْمَئِنِّينَ ﴾ ساكنين وقارين فيها ﴿ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴾ يهديهم إلى الحق، لتمكنهم من الاجتماع به والتلقي عنه، لأن الجنس إلى الجنس أميل، وأما عامة البشر فبعث الملك إليهم، معارضاً

(١) انظر تنوير الأذهان من تفسير روح البيان ٣٦٣/٢ بتحقيقنا، ومختصر تفسير ابن كثير ٣٩٩/٢.

للحكمة التي عليها بُني التكوينُ والتشريع، وإنما يُبعث المَلَك من بينهم إلى الخواص، المختصين بالنفوس الزكية، المؤيدين بالقوة القدسية، المتعلقين بالعالم الروحاني، والجسماني، ليتلقوا من جانب، ويلقوا إلى جانب.

﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ (٩٦).

﴿ قُلْ ﴾ لهم ثانياً من جهتك ﴿ كَفَى بِاللَّهِ ﴾ وحده ﴿ شَهِيدًا ﴾ على أنني أديت ما عليّ من مواجب الرسالة أكمل أداء، وأنكم فعلتم ما فعلتم من التكذيب والعناد ﴿ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ وإنما لم يقل: بيننا، تحقيقاً للمفارقة، وإبانة للمباينة ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ ﴾ من الرسل والمرسل إليهم ﴿ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ محيطاً بظواهر أحوالهم وبواطنها، فيجازيكم على ذلك، وفيه تسلية للرسول ﷺ، وتهديد للكفار.

﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ يُنَادُوا لِلَّهِ عَلَىٰ أَعْقَابِهِمْ خَوْفًا وَبُغْضًا وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَئِنْ رَأَوْا مَوْجِدًا مِّنَ الْمَاءِ شَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا جَائِعًا مُّغْرَمًا ﴾ (٩٧).

﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ ﴾ أي من يهده الله إلى الحق بما جاء من قبله من الهدى ﴿ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ﴾ فهو المهتدي إلى كل مطلوب ﴿ وَمَنْ يُضِلِّ ﴾ أي يخلق فيه الضلال، بسوء اختياره كهؤلاء المعاندين ﴿ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ ﴾ أوثر ضمير الجماعة باعتبار المعنى للفظ «مَنْ» في مقابلة الأفراد، نظراً إلى لفظهما، تلويحاً بوحدة طريق الحق، وقلة سالكيه، وتعدد سبيل الضلال وكثرة الضالين ﴿ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ ﴾ من دون الله تعالى، أي أنصاراً يهدونهم إلى طريق الحق، وإلى طريق النجاة من العذاب، الذي يستدعيه ضلالهم

﴿وَتَحْشُرُهُمْ﴾ التفاتٌ من الغيبة إلى التكلم، إيذاناً بكمال الاعتناء بأمر الحشر ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ أي كائنين عليها سحياً أو يمشون بها كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ روى الشيخان عن أنسٍ أن رجلاً قال: يا رسول الله ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ كيف يحشر الكافر على وجهه؟ قال رسول الله ﷺ: «أليس الله الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا، قادراً أن يمشيه على وجهه يوم القيامة؟ قال قتادة حين بلغه: بلى وعزة ربنا»^(١) ﴿عُمِيًّا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ روي أن واحداً قال لابن عباس: أليس أنه تعالى يقول: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ﴾ وقال: ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا﴾ وقال: ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ فثبت بهذه الآيات أنهم يرون، ويسمعون، ويتكلمون، فكيف قال ههنا: ﴿عُمِيًّا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾؟ قال ابن عباس: أي إنهم لا يبصرون ما يُقَرُّ أعينهم، ولا يسمعون ما يُلدُّ مسامعهم، ولا ينطقون ما يُقبل منهم، لأنهم كانوا في الدنيا لا يستبصرون بالآيات والعبر، ولا ينطقون بالحق، ولا يستمعونه، ويجوز أن يُحشروا بعد الحساب من الموقف إلى النار، عمياً وبكماً وصماً، وقبل ذلك كانوا يسمعون ويبصرون ويتكلمون، فإن إدراكاتهم في بعض المواطن، ممّا لا ريب فيه ﴿مَا أَوْثَمَهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ﴾ أي مستقرهم ومقامهم في نار جهنم، كلما سكن لها، بأن أكلت جلودهم ولحومهم ﴿زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ توقداً بأن بدلناهم جلوداً غيرها، فعدت ملتبهة، عقوبة لهم على إنكارهم الإعادة، ليروها عياناً حيث لم يعلموها برهاناً.

﴿ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَءِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾.

﴿ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ﴾ أي العذاب المذكور ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي بسبب أنهم

(١) الحديث أخرجه البخاري ٣٧٧/١١ في الحشر، ومسلم رقم ٢٨٥٩ في الحشر أيضاً.

﴿ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا ﴾ العقلية، والنقلية، الدالة على الإعادة بعد الإفناء
 ﴿ وَقَالُوا ﴾ منكرين ﴿ أءَذَا كُنَّا عِظَمًا وَرَفْتًا أءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ أي هل
 سنبعث بعد أن نصبح ذرات متفتتة، وعظاماً نخرة بالية؟

﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ
 مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾ ٩٩ .

﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا ﴾ أي ألم يتفكروا ويعلموا ﴿ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضَ ﴾ من غير مادة مع عظمها ﴿ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ فإنهم ليسوا
 أشد خلقاً منهم، ولا الإعادة أصعب من الإبداء، والمراد بالخلق الإعادة
 كما عبّر عنها بذلك حيث قال: ﴿ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ ﴿ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ
 فِيهِ ﴾ والمعنى: قد علموا أن من قدر على خلق السموات والأرض، فهو
 قادر على خلق أمثالهم من الإنس، وجعل لهم ولبعثهم أجلاً محققاً لا ريب
 فيه، هو يوم القيامة ﴿ فَأَبَى الظَّالِمُونَ ﴾ وضع الظاهر ﴿ الظالمون ﴾ موضع
 الضمير، تسجيلاً عليهم بالظلم، وتجاوز الحد ﴿ إِلَّا كُفُورًا ﴾ أي جحوداً
 وعناداً، مع وضوح الحق والدليل.

﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ
 الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴾ ١٠٠ .

﴿ قُلْ ﴾ للكفار الذين طلبوا منك إجراء الأنهار والعيون، في بلدتهم
 لتكثر أموالهم ﴿ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي ﴾ خزائن رزقه التي أفاضها
 على كافة الموجودات ﴿ إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ ﴾ أي لبخلتم ﴿ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ ﴾ أي
 مخافة النفاق بالإنفاق ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴾ أي مبالغاً في البخل، لأن مبني
 أمره على الحاجة، والضئبة بما يحتاج إليه، وليس في الدنيا أحدٌ إلا وهو
 يختار النفع لنفسه، ولو أثر غيره بشيء، وإنما يؤثره لِعوضٍ يفوقه، فإذا هو

بخيل، بالنسبة إلى جود الله سبحانه، فإن قيل: قد يوجد في الناس من هو جواد كريم، فكيف يوصف بالبخل؟ قلت: الأصل في الإنسان البخل، لأنه خلق محتاجاً، والمحتاج لا بد أن يحب ما يدفع عنه ضرر الحاجة ويمسكه لنفسه، إلا أنه قد يوجد لأسباب خارجية، مثل أن يحب المدح، أو رجاء الثواب.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسَأَلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي لقد أعطينا موسى الكليم تسع معجزات خارقة، واضحة الدلالة على صدق رسالته، وصحة ما جاء به من عند الله، وهي: اليد، والعصا، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وانفلاق البحر، والأخذ بالسنين أي القحط لآل فرعون، وله خوارق أخرى، منها انفجار الماء من الحجر، وفتح الطور، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى، ونحوها من المعجزات، لم تكن منزلة إذ ذاك، وفي تفسير قوله تعالى: ﴿تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ روي قول آخر ورد في حديث شريف عن صفوان بن عسال أنه قال: «إن يهودياً قال لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبي، نسأله عن تسع آيات؟ فذهبنا إلى النبي ﷺ وسألاه عنها، فقال هن: أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا، ولا تسحروا، ولا تأكلوا الربا، ولا تقذفوا المحصنة، ولا تولوا الفرار من الزحف، وعليكم خاصة اليهود أن لا تعتدوا في السبت، فقام اليهوديان فقبلاً يديه وقالوا: نشهد أنك نبيٌّ ولولا أن نخاف القتل اتبعناك»^(١) ﴿فَسَأَلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، أي فاسألهم يا محمد عن تلك الآيات، لتزداد يقيناً بما يوحى إليك، وليظهر صدقك عندهم ﴿إِذْ جَاءَهُمْ﴾ يعني

(١) الحديث أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣١٤٤ وقال: حسن صحيح.

حين جاء موسى عليه السلام إلى فرعون بالرسالة ﴿فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ﴾ أي فأظهر عند فرعون ما آتياه من الآيات البيّنات وبلغه ما أرسل به، فقال له فرعون ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾^(١) أي سحرت فتخبّط عقلك .

﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يٰ فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ ﴿١١٦﴾ .

﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ ﴾ الآيات التي أظهرها ﴿ إِلَّا رَبُّ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي خالقهما، والتعرض لربوبيته تعالى لهما، للإيدان بأنه لا يقدر على تلك الآيات، إلا خالقهما ومربيهما ﴿ بِصَآئِرٍ ﴾ أي بينات مكشوفات، تبصرك صدقي، ولكنك تعاند ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يٰ فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ مصروفاً عن الخير، مطبوعاً على الشرّ، ولقد قارع عليه السلام ظنّه بظنّه، وشتان ما بين الظنّين، كيف لا وظنّ فرعون إفاك مبین، وظنّه عليه السلام يحوم حول اليقين !! .

﴿ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴾ ﴿١١٧﴾ .

﴿ فَأَرَادَ ﴾ فرعون ﴿ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ ﴾ أي أن يستخف موسى عليه السلام وقومه، وينفيهم ﴿ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ أرض مصر، أو من الأرض مطلقاً بالاستئصال ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴾ أي فعكسنا عليه مكره، واستفززناه وقومه بالإغراق، ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله .

﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرٰءِيلَ اأَسْكِنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ ﴿١١٨﴾ .

(١) الظنّ هنا بمعنى العلم وإنما عبّر بالظن ليقابل قول فرعون له ﴿لَأَظُنُّكَ يٰ موسى مَسْحُورًا﴾ .

﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أي من بعد إغراقهم ﴿ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَتَسْكُنُوا الْأَرْضَ ﴾ التي أراد أن يستفركم منها ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ ﴾ أي فإذا جاء وقت قيام القيامة ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ مختلطين ثم نحكم بينكم، واللفيف الجماعات المختلفة من أجناس شتى.

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ ﴿١١٥﴾ .

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلْ ﴾ أي وما أنزلنا القرآن إلا ملتبساً بالحقِّ المقتضي لإنزاله، وما نزل إلا ملتبساً بالحق الذي اشتمل عليه، ولعل المراد بيان عدم اعتراء البطلان له أول الأمر وآخره ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا ﴾ للمطيع بالثواب ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ للعاصين بالعقاب.

﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا ﴾ ﴿١١٦﴾ .

﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ ﴾ أي نزلناه مفرقاً ومنجماً دلالة على كثرة آياته ﴿ لِتَقْرَأَهُ ﴾ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ ﴿ عَلَى مَهْلٍ وَتَوَدُّهُ ﴾ فإنه أيسر للحفظ وأعون على الفهم ﴿ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا ﴾ حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة، وعلى حسب الحوادث، نزل به جبريل الأمين، على قلب خاتم المرسلين، وفيه الهدى والشفاء. قال الراوي: اشتكى محمد بن السماك، فأخذنا ماءه وذهبنا به إلى طيب، فاستقبلنا رجلٌ حسن الوجه، طيب الرائحة، نقي الثوب، فقال لنا: إلى أين؟ فقلنا له إلى فلان الطيب، نريه ماء ابن السماك، فقال: سبحان الله، تستعينون على وليِّ الله بعدوِّ؟ ارجعوا إلى ابن السماك وقولوا له: ضع يدك على موضع الوجع، وقل: ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلْ ﴾ ثم غاب فلم نره، فرجعنا إلى ابن السماك فأخبرناه بذلك، فوضع يده على موضع الوجع، فقال ما قال الرجل، وعوفي في الوقت.

﴿ قُلْ ءَامِنُوا بِهِ ۖ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١١٧﴾ ۖ .

﴿ قُلْ ﴾ للذين كفروا على وجه التهديد والإنكار ﴿ ءَامِنُوا بِهِ ۖ ﴾ بالقرآن ﴿ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ﴾ فإن إيمانكم به لا يزيده كمالاً، وامتناعكم عنه لا يورثه نقصاً، والله تعالى أوضح البينات والدلائل، فاختاروا النعيم المقيم، أو العذاب الأليم، وفيه وعيد وتهديد ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ أي العلماء الذين قرؤوا الكتب السالفة، من قبل تنزيله، وعرفوا حقيقة الوحي، وأمارات النبوة، وتمكنوا من معرفة الحق والباطل، وهم مؤمنو أهل الكتاب، منهم «زيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل، وعبد الله بن سلام» ونحوهم ﴿ إِذَا يُتْلَىٰ ﴾ أي القرآن العظيم ﴿ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ ﴾ أي يسقطون على وجوههم ﴿ سُجَّدًا ﴾ تعظيماً لأمر الله، وشكراً لإنجاز ما وعد به في تلك الكتب من بعثتك، وتخصيص الأذقان بالذكر، للدلالة على كمال التذلل، وهو كناية عن غاية الخشوع، والمقصود من ذكر هذا اللفظ، مسارعتهم إلى السجود، حتى إنهم يسقطون سجداً لله أي إن لم تؤمنوا به، فقد آمن به من هو خير منكم.

﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١١٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١١٩﴾ ۖ .

﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ في سجودهم ﴿ سُبْحَانَ رَبِّنَا ﴾ عما يقول الكفرة من التكذيب، وعن خُلفِ الوعد ﴿ إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ «إن» مخففة من الثقيلة، أي إن الحال والشأن أن وعد الله حق، واقع لا محالة، لأن الله لا يخلف الميعاد.

﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ ﴾ كَرَّرَ الخرور لاختلاف السبب، فإن الأول لتعظيم أمر الله، والثاني: لما أُرِّ فيهم من مواضع القرآن، حال كونهم

باكين من خشية الله ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ أي القرآن بسماعهم ﴿خُشوعًا﴾ ﴿لِينِ قَلْبٍ وَرَطُوبَةِ عَيْنٍ﴾، كما يزيدهم علماً و يقيناً لله تعالى. عن ابن عباس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «عينان لا تمسهما النار، عينٌ بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله»^(١).

﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾^(١١٠).

﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ نزل حين سمع المشركون رسول الله ﷺ يقول: يا الله، يا رحمن، فقالوا: إنه ينهانا عن عبادة إلهين، وهو يدعو إلهاً آخر، والمراد هنا في الآية: التسوية بين اللفظين، بأنهما عبارتان عن ذات واحدة، والتوحيد إنما هو للذات والدعاء بمعنى التسمية وأو للتخيير ﴿أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ والتنوين في ﴿أَيًّا﴾ عوض عن المضاف إليه، وأصل الكلام أي ما تدعو فهو حسن، فوضع موضعه ﴿فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ للمبالغة، والدلالة على ما هو الدليل عليه، إذ حُسْنُ جميع أسمائه، يستدعي حسن الاسمين الجليلين لدالتهما على صفات الكمال ﴿وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوهَا﴾ أي لا تجهزوا بالقراءة في صلاتك، بحيث تُسمع المشركين، فإن ذلك يحملهم على السبِّ واللغو فيها، ولا تخافتوا بقراءتها، بحيث لا تُسمع من خلفك من المؤمنين ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ أي أمراً وسطاً، فإن خير الأمور أوسطها. عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ﴾ قال: كان ﷺ بمكة إذا صلى بأصحابه، رفع صوته بالقرآن، فإذا سمعه المشركون سبوا القرآن ومن أنزله، ومن جاء به، فقال الله تبارك وتعالى لنيبيه ﷺ ﴿وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ﴾^(٢) الآية وقيل نزلت الآية

(١) الحديث أخرجه الترمذي رقم ١٦٣٩ في فضائل الجهاد.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٤٠٥/٨ ومسلم برقم ٤٤٦ في الصلاة.

في الدعاء، وهو قول عائشة، والنخعي، ومجاهد، ومكحول، روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾ الآية قالت: «نزل ذلك في الدعاء»^(١) وعن أبي قتادة أن النبي ﷺ قال لأبي بكر: مررتُ بك وأنت تقرأ القرآن، وأنت تخفض من صوتك، فقال: «إني أسمعت من ناجيتُ، فقال ارفع قليلاً، وقال لعمر: مررتُ بك وأنت تقرأ وأنت ترفع من صوتك، فقال: إني أوقظ الوسنان، وأطرد الشيطان، فقال: اخفض قليلاً»^(٢).

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكِبْرُهُ تَكْبِيرًا ﴾^(١١)

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ كما يزعم النصارى واليهود حيث زعموا المسيح ابن الله، وعزير ابن الله، وقال المشركون: الملائكة بناتُ الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴾ كما يقوله الكفار القائلون بتعدد الآلهة ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ ﴾ أي مانع وناصر ﴿ مِنَ الذَّلِيلِ ﴾ لاعترازه به، أو لم يوال أحداً من أجل مذلة ليدفعها به، والمعنى: ليس جلّ وعلا بذليل حتى يحتاج إلى الولي والنصير، وفي التعرض في أثناء الحمد لهذه الصفات الجليلة، إيذان بأن المستحق للحمد، من هذه نوعته دون غيره، إذ بذلك يتم الكمال، والقدرة التامة ﴿ وَكِبْرُهُ تَكْبِيرًا ﴾ أي عظّمه وصفه بأنه أكبر من أن يكون له ولد، وشريك، عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «أفضل الدعاء «الحمد لله» وأفضل الذكر «لا إله إلا الله»^(٣).

(١) أخرجه البخاري من حديث عائشة موقوفاً، وانظر فتح الباري ٨/ ٤٠٥.

(٢) أخرجه الترمذي في المواقيت، وأحمد في المسند ١/ ١٠٩.

(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات رقم ٣٣٨٠ وابن ماجه رقم ٣٨٠٠ في الأدب.

والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه وبالله العصمة والتوفيق، حسبنا الله
ونعم الوكيل، نعم المولى ونعم النصير،
والصلاة والسلام على خير خلقه محمد ﷺ، وعلى آله وأصحابه
أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الإسراء»
